صورة البصرة في بخلاء الجاحظ

د . هاني العمد

دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العــامة

الطبعة الاولى سنة ١٩٩٠ - بغداد

طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة « آفاق عربية »
رئيس مجلس الادارة :
الدكتور محسن جاسم الموسوي

تعنون جميع المراسلات
بأسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنوان :
العراق ـ بغداد/اعظمية ص ـ ب ٤٠٣٢ ـ تلكس ٢١٤١٣
هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

سلسلة كتاب التراث الشعبي

صورة البصرة في بخلاء الجاحظ

الدكتور
هاني العمد

الطبعة الاولى لسنة ١٩٩٠ ـ بغداد

المحتويـــــات

مقدمـــــــــة

لقد حظي الجاحظ باهتمام كتاب كثيرين ممن ولعوا بترجمته ونقد مؤلفاته من العرب وغير العرب . ونال ادبه عناية كثير من الباحثين والدارسين والنقاد . وقلمـا حظي أديب عربي اخـر بمثل ما حظي بـه الجاحظ من الاهتمام الموصول والعناية الجادة . ولا غرابة في ذلك ، فالجاحظ ملأ الاسماع وغير المفاهيم ، واثار الجدل واضاف الجديد ، ودعا الى التفكير المليء والنظرة الثاقبة عند معالجة الاشياء ونقد الظواهر ، بعيدا عن العاطفة واتخاذ المواقف سلفا . ومـا يزال الجاحظ يشغل بال الادباء والكتاب والنقاد والباحثين والدارسين وارباب القلم ، على اختلاف توجهاتهم وتبايـــن امزجتهم ومشاريعهم واهتماماتهم .

واوضحت الدراسات التي كتبت عن الجـاحظ ، على غزارتها وتنوعها واتساعها وعمقها ، جوانب مهمة من المواقف التي تشكل في مجمـوعها نظريـات صائبة ، وكشفت عن عبقرياته وتميزه في الكشف عن كثير من الجوانب الانسانية والفكريـة والثقافية والادبية . غـير ان نصيب تخصص

الباحثين والدارسين في معالجة امر كتاب واحد من كتبه كان قليلا ، لذلك رأيت ان اسد هذه الفجوة ، وعزمت على ان أتلافى هذا النقص •

وعندما دعيت الى ندوة البصرة في التراث الشعبي التي دعت اليها وزارة الثقافة والاعلام ببغداد في الفترة ما بين ٣ـ٥ حزيران ١٩٨٩ ، خطر ببالي ما كنت قد عزمت عليه • فكانت شخصية الجاحظ وكان كتاب البخلاء اول ما يمكن ان يفي بهذا الغرض • أما سبب اختياري لكتاب واحد من كتب الجاحظ الذي ولد بالبصرة ومات بها (١٥٩ـ٢٥٥) هـ فيعود الى ان هذا الكتاب قد يكون من اكثر كتب الجاحظ احتفالا بالوثائق الاجتماعية والادبية التي تتحدث عن مدينة بعينها هي البصرة • وقد امدني هذا الكتاب بمعلومات كثيرة ، حاولت من خلالها ان اكتشف صورة مدينة البصرة ، خلال فترة زمنية محددة رسمت بقلم ابن لها عاش بيئتها ، وسجل فيها ملاحظاته وانطباعاته ، بعيدا عن المغالاة والافراط في ذكر المحاسن ، او المبالغة في ذكر المساوىء •

ولم يكن الوقت كافيا للبحث العميق في الكتاب ، فاخترت بعض جوانب منه ، وقدمتها في الندوة المشار اليها• ومع ذلك ، فقد واجه البحث استحسانا من عدد من

الدارسين والباحثين العراقيين منهم والعرب ، ممن كانوا قد التحقوا بالندوة • وقامـوا مشكورين بمناقشة ماجاء في البحث من ملاحظات بروح مسؤولة • وعندمـا عـدت الى الاردن ، عكفت على دراسة الكتاب مـن جديد ، وواجهته بنظرة اكثر عمقا وشمولا ، لاخلص الى ما خلصت اليه في هذا البحث ، الذي لايكاد يمت للبحث الاصلي بصلة •

ومهما يكن من امر ، فقد اخترت هذا الكتاب مـن كتب الجاحظ الكثيرة ، لعلمي انه لم يسبق لباحث ان قـام بدراسة كتلك التي قمت بها • اما ما قام به المرحوم الاستاذ طه الحاجري من تحقيق للنصوص وكتابة مقدمة عامة تقع في حوالي ٤٠ صفحة فضلا عن تعليقاته وشروحه ، فانه لم يتخذ البصـرة بيئة متميزة لملاحظاته واشاراته ، واكتفـى بالاشارة الى شرح لبعض الالفاظ والمصطلحات ، ومع ذلك فقد اعتمدت على تحقيقه لنص البخلاء اعتمادا كليا • واما البحث الذي كتبه شارل بيلات بعنوان الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء فهو مقسوم الى فصول ، اشتمل الفصل الاول على مقدمات تناولت البصرة ابان التأسيس وأوساطها ولا سيما الوسط الادبي • وما من شك في انني اطلعت على ما كتبه الاساتذة : الدكتور عبدالحميد الشلقاني (الاعراب الرواة) ، والدكتور الياس فـرح (الصـراع الفكري عند

الجاحظ) ، والدكتور جورج غريب (الجاحظ : دراسة عامة) ، والدكتور احمد مطلوب (البلاغة عند الجاحظ) ، وخليل مردم (الجاحظ) ، وجميل جبر (الجاحظ ومجتمع عصره) ، وحنا فاخوري (الجاحظ) ،وشفيق جبري (الجاحظ : معلم العقل والادب) ، وغيرها من المؤلفات التي أفدت منها في الاحاطة بما كتب عن شخصية الجاحظ ومؤلفاته وفلسفته .

ولقد هدفت في هذا البحث الى ان اظهر صورة البصرة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين من خلال ما سجله الجاحظ في كتاب البخلاء ، وقمت فضلا عن توضيحي لملامح بخلاء الجاحظ بتوضيح ملامح بيئات اخرى مثل : بيئة العيابين وبيئة المكدين وبيئة المغفلين والحمقى واصحاب النوادر وبيئة المؤجرين والمستأجرين .... ، مكملا بذلك خلفيات اخرى لصورة البخلاء التي احاط بها الجاحظ احاطة شاملة ووافية .

ومهدت للبحث بمدخل تحدثت فيه عن تأسيس البصرة وصفتها واسمها ومخططاتها وانتماءات سكانها وبيوتاتها ومربدها ، فأوساطها الاجتماعية والدينية والادبية . ثم قسمت البحث الى فصلين خصصت الاول منهما لمصادر

الكتاب ومحتواه ، حيث تحدثت عن منازل البخلاء ، وفئات اخرى من غير البخلاء ، حيث لاحظت اهتمام الجاحظ بوصف هذه الفئات ، راسما لكل فئة صورة صادقة ، غالبا ما تكون مضحكة وساخرة • أما الفصل الثاني فقد خصصته لبيئات البخلاء والرواة والقصاص ، واثر البيئة البصرية عليهم ، كما تحدثت عن حياة البصريين وصناعاتهم وحرفهم، وما الى ذلك •

واعتمدت في البحث المنهج التحليلي ، وحاولت ان استخرج من الكتاب بيئات لم يأبه لها الباحثون من قبل ، ولا سيما بيئة العيابين والمكدين وغيرهما ، حيث جرى العرف على اعتبار الكتاب كتاب بخلاء لا اكثر ولا اقل ، كما تمكنت من استخراج معلومات مفيدة في مجالات اجتماعية وعلمية اخرى ، من مثل الطب الشعبي والازياء وما الى ذلك ، لعلمي ان هذه المعلومات لم يلتفت اليها الباحثون من قبل •

ولقد اسميت هذا البحث صورة البصرة في بخلاء الجاحظ ولا بد من الاشارة الى ان ما خلصت اليه من احكام يدور في اطار يتمثل في صورة مدينة البصرة من خلال كتاب البخلاء ، وكلي امل في ان يكون هذا البحث قد اضاف جديدا وكشف الغطاء عن بعض الحقائق الخاصة

بالمدينة والكتاب • وانا على ثقة من ان تناول القضايا الادبية الطريفة لا يسلم من النقص ولا يبرأ من الخطأ • وكـــل ما ارجوه هو ان يجلو هذا البحث بعض معالم فكرية وثقافية وادبية رأيتها عند الجاحظ في كتابه ، وان يجد فيه الباحثون والقراء ما يفيدهم ويثري معارفهم •

بســم الله الرحمن الرحيــم

مقدمـــــة :

مع تأسيس مدينة البصـرة العربيـة في الفترة مابين ١٤ـ١٧ للهجرة ، بـزغ فـجر جديد لثقافـة عربية كانت وما تزال تمد العروبة والانسانية بشعاع المعرفة الذي ماخبا يوما ،ولا اصابه الوهن او الانكسار او الانحسار.ولكن فترة التأسيس تكاد ان تختفي من المصادر الجغرافية والتاريخية التي تتحدث عن تخطيط المدينة اثناء التأسيس ، وبالتالي فان كتب التاريخ الكبيرة التي انتشرت فيها الاخبار بصرف النظر عن تواريـخ تأليفها ودقـة معلوماتها ، هذه الكتب لاتسعف الباحث في مثل هذه الحالة . بيد ان هناك بعض المصادر التاريخية التي كتبت عن المدينة منذ اليـوم الذي بدأت فيه القيادة العربية والاسلامية تفكر في تأسيس مدينة عسكرية لها مواصفات معينة والملاحظ ان هذه المصادر لم تعاصـر تأسيس المدينة ، بدليـل ان اصحابها قد نقلوا عن

مؤرخين سابقين عليهم وبالتالي فان كتبهم ضاعت او تناثرت في بطون الكتب الاخرى • وعليه ، فان كتاب الطبري يصبح من المصادر المعتمدة ، وهو الذي اورد مقتطفات لعمر بن شبه وسيف بن ابي عمر وابي مخنف وهذه الاهمية تنطبق على كتاب انساب البلاذري الذي يتحدث عن اسم المدينة وتاريخ تأسيسها وعناصرها البشرية وغير ذلك ، هذا فضلا عن كتب جغرافيي العرب كالمقدسي ، وكتاب اليعقوبي وفتوح البلدان للبلاذري وتنبيه المسعودي ومعجم البلدان لياقوت ومعاجم اللغة الكبيرة وغيرها •

وتذهب جل هذه المصادر(١) الى ان البصرة اسسها ، بأمر من الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب ، عتبة بن غزوان سنة ١٤ هـ ٦٣٤ م تقريبا كمعسكر حربي • وبدأ بتخطيط المسجد الجامع باعتباره نواة المدينة الجديدة ومركزها ، ثم خططت الشوارع فالازقة فالرحبات للخيول والدواب والمقابر ، في حين تركت حرية تقسيم الخطط للقبائل التي

---

(١) انظر البلاذي « فتوح البلدان » • بيروت : دار الكتب العلمية ،د•ت ص ٤٣٢ وما بعدها
عبد العزيز الدوري « مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ط٣ بيروت ، دار الشروق ، ١٩٨٤ ، ص ٨٦ ــ ٨٧ •
مصطفى الموسوي « العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية والاسلامية » بغداد : دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٢ ص ١٥٠

اختطت منازلهـا وبنتها من القصب الذي كان ينتشـر في البيئـة .

وشأن معظم المدن العربية ، فقد اقترنت فكرة التأسيس بالاساطير والقصص التي يصعب معهـا استخلاص الحقائق المجردة ، ولو بصورة تقريبيـة . وما من شك في ان هذه الاساطير والقصص قد دارت حول العناصر التي سكنتها ، وعلى الارض نفسها التي كانت جرداء غير ذات زرع ، تكاد ان تكون محرومـة من المياه الصالحة للحياة البشـرية الا ماكانت عليه « الابلـة » من وفرة في الميـاه على بعد اربعة فراسخ . وهي المدينة التي زودت البصـرة بالمياه الصالحة للشرب منذ ولاية ابي موسى الاشعري .

ويرى الاستاذ شارل بلات(١) ان صفة البصرة العربية تبدو بوضوح في اسمها بالذات الـذي يصعب نسبته الى اصل اعجمي . ويذهب الى ان الاسم قد يكون مشتقا من طبقة الارض ، في حين يورد بعض المؤرخين آراء متضاربة. ولعلنا لانذهب بعيدا ان قلنا ان الاسم قد يكون مستمدا من الفعل الثلاثي « بصر » على اعتبار ان المخطط للمدينة ارادهـا باديء ذي بدء ان تكـون معسكرا اقيم ليراقب

---

(١) الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء . تأليف شارل بيلات، وترجمة د.ابراهيم الكيلانـي ، دمشق : دار اليقظة ، ١٩٦١ ص ٢٦ .

تحركات سفن الاعداء التي قد تأتي من اعالي المحيطات والخليج ، ولتراقب الطرق الملاحية ، وتتأهب لعمليات عسكرية مقبلة ، وتكون متنفس العراق البحري •

ويبدو ان اهمية البصرة قد برزت في اتساع مهامها العسكرية والاقتصادية والاجتماعية ، فبدأ التخطيط لزيادة اعداد المهاجرين • وادى ذلك الى تطورها الذي بدأ في ولاية الاشعري • فقد كان اجتماع القبائل ومحاولة توطينها في مكان واحدا امراً غير مأمون ، وبالتالي فان احتمالات الصدام والانشقاق واشتعال نار العداء كانت واردة في حسابات القيادة العليا ، والدليل على ذلك هو ما جاء في رسالة الخليفة عمر بن الخطاب التي وجهها اليه وهو يعينه واليا عليها حين قال « اني ابعثك الى ارض قد باض الشيطان فيها وفرخ ، فالتزم ماتعرف ، ولا تستبدل فيستبدل الله بك » •

وما من شك في ان نشوء مدينة جديدة على اطراف الصحراء قد اغرى عددا كبيرا من افراد القبائل الى استيطانها • كما جذبت من الحجاز ونجد واليمن وبقاع اخرى دخلها الاسلام لتوه ، جماهير غفيرة اخرى من عناصر متنوعة اسهمت في توسيع المدينة بصورة هائلة • وساهم عبدالله بن عامر في تطوير البصرة بسياسته التي هدفت الى

تشجيع العمران بالمدينة ، ومن اجل هـذه الغاية فقد منح بعض الاشخاص بعض الاقطاعات لزيادة الانتاج . كما قام بتوسيع الاسواق بعد ان قـرر شـراء عدد من الدور وبنى موضعها اسواقا ، ولا سيما بعد ان تأكد له ان سوق المربد لم تعد قادرة على مهرجانات المدينة . هذا فضلا عن اهتمامه بانشاء الوحدات العمرانية بزيادة عمران المدينة ، كالمحلات والمربعات والحمامات ... ولا تسعفنا المصـادر باعـداد سكان المدينة . ولكن من المؤكد ان كثيرا من افراد الجالية العسكرية قد تزوجـوا وتوالـدوا وبدأ الابنـاء يفقدون الفضائل العسكرية والاصول القتالية ، وانخرطوا في سلك التعليم والتجـارة . كما راحـت الاجناس والفئات تتمازج وتتزاوج . بحيث وصل التطور في القرن الثاني الى أوجه . ومن يقلب صفحات(١) بعض المصـادر ويرصـد الوفيات بالبصرة ايام السلم وايام الحرب يخرج بتصور قريب يمكن اعتباره اساسا للتقديرات . هذا مع العلم ان زيـاد بن ابيه استطاع ان يجنـد (٢٥) الف رجل ، في حـين ان عـدد المسجلين في ديوان الجند «٨٠» الفا . وقدر الطبري سنة ٩٦ هـ عدد جيش البصرة المحارب في خراسان بـ (٤٠) الفا .

---

(١) انظر الطبـري ١ : ٢٣٧ وما بعدها . وتاريخ ابن الفقيه ١٨٨ والتنبيه والاشراف للمسعودي ٣٥٧ معجم البلدان لياقوت الحموي ١/٦٤١ .

وتكاد تجمع المصادر على ان البصرة قد مرت بمرحلة تالية من مراحل تطورها في عهد زياد بن ابيه الذي كان اول من بني بها الاجر والجص . واعاد بناء المسجد الجامع ودار الامارة بهذه المواد التي تمثل تطورا ماديا في تاريخ عمارة المدينة . كما اعاد تنظيم المدينة وتحديد تقسيماتها الطبغرافية والسكنية ، متبعا النظام الذي اتبع بالكوفة . فقد قسمها الى خمس دوائر قبلية تسكنها مجموعات العشائر ، بحيث تنتمي كل مجموعة الى قبيلة واحدة لها رئيس واحد يتمتع بسلطات واسعة ، الامر الذي سهل ادارة المدينة ، وساعد على استنفار الجند . وهذه الاخماس هي : أهل العالية وتميم وبكر بن وائل وعبدالقيس والازد فأهل العالية مثلا هم قريش وكنانة وبجيلة وخثعم وقيس عيلان ومزينة واسد، وهي القبائل التي كانت تسكن نجد ونواحيها وقراها وعمائرها الى تهامة .

ولكن العنصر العربي البدوي لم يكن وحده في المدينة فقد كان يسكنها طبقة من الزراع اطلق عليها العرب النبطيين . ويبدوا انهم التزموا جانب الحياد اثناء الصراع العربي الفارسي . ولعل هذا الموقف منهم تجاه الصراع هو الذي دفع الجاحظ الى ان يشبههم بالقرود(١) اما العنصر

(١) الحيوان : ٤ : ٢٤ .

الايراني فقد ظل منكفئا على نفسه ولم يختلط بالعنصر العربي ، ولم يتوصل هذا العنصر الى المنصب العالي الا بعد ان ضعف الحكم العباسي امامهم • في حين استوطن مستنقعات البطائح الزط الذين اعتبروا اسلافا للغجر ، ولعل اصولهم تعود الى السند • كما سكنها الزنج الذين جلبوا من افريقيا والمالقيون وغيرهم من الشعوب •

ولقد توطنت في البصرة بعض البيوتات البدوية التي انحدرت اليها من الجزيرة ، وهي آل زرارة وآل زيد وآل الدئل وآل القيس ، كما يرى ابن الفقيه ، الذي يذهب الى ان في البصرة اربع بيوتات ليس في الكوفة مثلها هي : بيت بني المهلب وبيت مسلم بن عمرو الباهلي وبيت بني مسمع بن بكر بن وائل وآل الجارود من عبد قيس • وعند البصريين ان المهلب هو بطلهم القومي الذي دفع الأزارقة عن البصرة • ومع ذلك فان هذا الموقف ازاء ماحصل عليه من امتيازات واقطاعات واموال لم يشفع له فكان هدفا للطعن والتجريح • وقد ورد كثير من هذه الاسماء في بخلاء الجاحظ الذي اورد جانبا من اخبارهم في التاريخ البصري، واشتهروا منذ القرن الاول حيث تسلموا قيادة القبائل ، واستمروا في ذاكرة الشعب ابطالا قوميين بصرف النظر عن فكرة الزمن •

ولم تكن المدينة محصنة • وقد اضطر المدافعون عنها

للمرة الاولى الى حفر سور وخندق لحمايتها ، الى ان جاء المنصور فعمل لها سنة ١٥٥ هـ خندقا وسورا وجعل ما انفق فيه من اموال اهلها • وكان للسور باب واحد هو باب الباديه الذي كان يطل في القرن الرابع عليها ، كما لاحظ المقدسي(١) لان طرف البصرة البري قد خرب • وكان السور فيما مضى بالمربد البعيد عن بيوت المدينة • ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس ، تربطها بالمدينة سوق تحيط بها المحال من جانبيها وتخترق البصرة من الشرق الى الغرب •

ولم تكن البصرة في نظر العرب شيئا لولا المربد • ويرى ابن قتيبة(٢) انه اذا كان العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق فان المربد عين البصرة • والمربد سوق واسعة يؤمها البدو لبيع مواشيهم واناخة قوافلهم • ولكن النشاط التجاري هذا لم يكن شيئا مذكورا لولا وجود نشاط اخر وصفه شارل بلات(٣) بانه بضائع لاتقدر بثمن ، وتمثل هذا النشاط في : الشعر والاخبار واللغة والنحو والحديث وسواها • ففي هذا الوسط كان الشعراء يغدون لتلاوة قصائدهم ، فينتقل البدو الى النحاة واللغويين ورواة الشعر

(١) رحلة المقدسي ١١٧
(٢) عيون الاخبار ١ ٢٢٢٠
(٣) الجاحظ · ص ٣٦

وحفظه الشواهد والكلمات النادرة وقواعد اللغة البدوية الجميلة • وفي هذا الوسط تمرس ادباء العربية وكبار كتابها بلغة الصحراء ، وزادت معارفهم في اللغة ، وملكوا ناصية الفصاحة • وفي هذا الوسط الفني كان كبار الشعراء يتساجلون على مشهد ومسمع من الجمهور الذي اصبح صاحب ذوق وحس مرهفين ، وكان هذا الجمهور ، يدرك ما يقال وسط صياح البائعين واصوات الدلالين والغبار الذي تثيره حوافر الدواب •

واذا كان المربد يمثل اقطاعا للشعراء واللغويين والناقدين ، فقد اقطعت بعض اراضي البصرة الى ملاكين من العرب الذين انضموا الى المدينة ايام الخليفة عثمان بن عفان • كان منهم عمران بن الحسين وابن عامر وعثمان بن ابي العاص الثقفي ، فضلا عن اعداد اخرى تكونت منها نواة الارستقراطية البصرية • واشار ياقوت الحموي الى نسخة عن كتاب في الاقطاع ولم يذكر مصدرها • وتفيد هذه الوثيقة ان اصحاب الاقطاع ملزمون باعمار قطيعتهم خلال سنتين • وكانت تمنح عوضا عن الارض التي اخذت منه في مكان ما لصالح بيت المال •

وما من شك في ان هذه الطبقة قد افادت من الاقطاع في حفر الاقنية لزراعة النخيل الذي اصبح مصدرا اساسيا

من مصادر ثروات البصرة . وخلال مدة وجيزة اصبحت بلاد البصرة جنات متصلة على طول «٥٠» فرسخا ، كما لاحظ كل من الاصطخري وابن حوقل ، وهذا ما يشير اليه الجاحظ حيث لاحظ انه كان يلجأ الى هذه الجزيرة الارستقراطيون والعاطلون للاستمتاع بالملذات في دور تحجبها الخضرة .

اما مناخ البصرة ، فقد عرف برداءته . وقد وصفه المقدسي(١) بأنه بارد في الشتاء وربما جمد الماء فيها . في حين تشهد المدينة في الصيف حرا عظيما ، غير ان الشمال ربما هبت فطاب . والرياح الجنوبية حارة وموبوءة . ووصف ابن لنكك(٢) هذه الحال فقال :

نحن في البصرة في لو ... ن من العيش ظريف
نحن ماهبت شمال ... بين جنات وريف
فاذا هبت جنوب ... فكأنا في كنيف

ويرى كثير من الدارسين ان من عيوب البصرة اختلاف هوائها في يوم واحد ، لانهم يلبسون القميص مرة والمبطنات مرة لاختلاف جواهر الساعات ولذلك سميت البصرة بالرعناء وفيها قال الفرزدق(٣) .

---

(١) المقدسي ١٢٥ ـ ١٢٦
(٢) معجم البلدان ١ : ٦٤٨
(٣) المصدر نفسه

لولا ابو مالك المــرجو نائله ماكانت البصرة الرعناء لي وطنا

واذا كان البصريون قد واجهوا هذه الظاهرة واعلنوا عنها بسبب ما تسبب لهم من ضيق وحدة نفسية ومزاج غير مستقر ، فقد واجهوا مشكلة اخــرى تتمثل في المياه التي يغلب عليها الملوحة • واذا كان هذا المــاء قد صلح لسقي المزروعات فانــه غــير صــالح للاستهلاك • وقــد اشار الجاحظ(١) الى هذا الامر في كتاب البخلاء عندما اورد قصة لاحــد المسجديين وقصة لابن ابي كريمة ، وفيهما اشارات مبالغ فيها في تقدير الماء العذب والشح بــه والتدبير له • ويمكننا في هذه الحالة ان نتصور كيف كــان ينقل المــاء العذب اليها في سفن من الابلة ، وكيف بالتالي زادت كثافة المــرور في شوارع المدينــة حيــث اعتمدت على الدواب والسقاءين في نقــل الماء ، وتوزيعــه على المنازل والمــرافق العامة ، الامر الذي اضاف الى حياة هذه المدينة لونا من مظاهر الحياة الاجتماعية المرتبطة بفئة السقاءين الذين تولوا هذه الوظيفة ، وما كان من شأنهم في نقل الاخبار الاجتماعية ونشرها بين اهل المنازل التي يتعاملون معها •

---

(١) البخلاء ص١٣ •

اوساط البصرة الاجتماعية والدينية والادبية :

يتميز الجاحظ في انه تمكن من تصوير اخلاق الناس الذين يعيشون في مجتمعه اثنــاء ممارستهم للحياة العادية الطبيعية مستهديا بما يلاحظ ، ومستخدما السخرية والنقد والتحليل والاستنتاج • ولم يقف عند طبقة دون طبقة بل صور الطبقات جميعها ضاربا عرض الحائط بما قد يجر ذلك عليه من نقمة بعض الاوساط او تهديدها له او استنكارها لمــا يكتب ويذيع • واذا كان الادب العربي ما يزال يدين للجاحظ بجرأته وتفوقه وتقدمه في مجال الدراسات الادبية والاجتماعية ، فانــه لاينــكر للجاحظ قــدرته على النقد • وعزوفه عن التقليد والاتباع ، ورفض الاساليب الجاهزة •

ولابــــد ان يكــون الجــاحظ الــذي ولــد في حــــدود ١٥٥ هـ قـــد استمع الى احاديــث الجيــل الثانــي للتأسيس وذكرياتهـــم ومواقفهـــم وتصـــوراتهم لمــا حدث • وكان هذا الجيل قد اخذ على عاتقه مهمة بناء مدينة اسلامية حديثة ، جمع لها سكان مــن شتى الاقطار الاســلامية التي فتحهــا المسلمون لتوهم وارتبط وجود هؤلاء السكان بمفهومين هما : الدين والعنصر • وعلى هذا الاساس تكون مجتمع البصرة الذي قام على العنصر العربي المسلم الذي تكون من البدو الذين اسلموا اختيارا وكان

عليهم ان يواجهوا فكرة الاستقرار ويقبلوا بهـا والمسلمين الجدد وهم من الاعاجم وعناصـر النصـارى واليهود ، والرقيق على ان هذا المجتمع خضع للنظريـة الاقتصاديـة التي تطلبت تمازجا اجتماعيا ، مما ادى الى نشوء مجتمـع جديد يقوم على اسس مختلفة عن الاسس القبلية التي تقوم اصلا على العصبية ، ولو انها ظلت مطلوبة ومرغوبا فيها ، ونقصد بذلك مقياس المال والثراء • وهكذا نرى ان مجتمع البصرة سرعان ماتحول الى مجتمع طبقي يتكون من : الطبقة الارستقراطية المؤلفة من العرب ، والطبقة البرجوازية المؤلفة من عناصر عربية غير بدوية وعناصر اعجمية ، مسلمة وغير مسلمة ، وطبقة الشعب الذي لايكاد يجـد ما يتبلغ به ، وطبقة الرقيق •

وقد ادى هـذا الوضع الاجتمـاعي الى الابتعاد عن العناية بالزراعة والتحول الى التجارة التي كانت تتطلب رأس المال • كما كان بعض البيوتـات العربية تتمتع بالاقطاعات المنتجـة •

وكان البيت منهم يسعى بكل الوسائل لتولي المناصب الادارية • على ان الانتقال المفاجيء عند عرب البصرة مـن الفقـر الى اليسـر ومن الحيـاة الخشنة الى حيـاة السعة والسهولة ، ادى ذلك كله الى ارتفاع وانخفاض ، وتبدل وتغير في الميزان ، وفقر وغنى عند الطبقات ، حتى لقد اصبح

المال هو القياس وبلغ الامر باحدهم ان اعلن دونما مواربة :

سابغي الغنى اما جليس خليفة نقوم سواء ، او مخيف سبيل

وكان لابد ازاء هذه الطبقة والنظرة الجديدة للثراء واستعمال الاساليب المشروعة وغير المشروعة للحصول عليه حتى شاع في القرن الثاني المقولة التي تمجد المال على اساس ان « المال المال وما سواه محال »(١) كان لابد مع هذه الحالة ان تضطرب الاوضاع المعاشية ويتسرب الخلل الى الاخلاق ، واستخدام الوسائل كافة من اجل الحصول على المال عن طريق اللصوصية والتسول وقطع الطرق والسرقة وارتكاب الجرائم ، وعمل كل مايساعد على توفيره .

هذا من الناحية الاجتماعية العامة لحياة البصريين . اما حياة البصريين الخاصة فيمكن اعتبار الاسرة في مجتمعهم وحدة مقدسة كاملة القداسة ، ولو ان شأن الاسر العربية الاخرى ، تشغل في حياة ربها مكانا ضيقا بسبب كثرة المشاغل والواجبات والالتزامات . وفي ذلك فوارق واضحة بين الفئات الاجتماعية فالعمال على صلة اقوى باسرهم ، وابناء الطبقة المتوسطة واولاد الاثرياء يفضلون اللهو ، في حين اهل المسجد والزهاد يحرصون على اتمام واجباتهم الدينية .

---

(١) البخلاء ص ٢٣

اما المرأة البصرية فكانت تتمتع بالحرية الكافية بحيث كانت تمارس واجباتها الاجتماعية والدينية والسياسية ، وكانت المرأة البصرية قادرة على ان تطبع عصرها بطابعها الشخصي وكانت تخرج الى حلق العلماء وتتعلم القراءة والكتابة وكانت العربية منهن تطلب للزواج المشروع ، في حين ان المولدة كانت توصف وصفا حسيا من مثل قول خالد بن صفوان « المولدات من البصريات والكوفيات ذوات الالسن العذبة والقدود المهفهفة والاوساط المخصرة والاصداغ المزرفقة والعيون المكحلة والثدي المحققة »(١)٠

وعلى الرغم من ان حياة مجتمع البصرة العامة مألوفة شأنها في ذلك شأن اي مجتمع عربي اسلامي اخر الا انها تميزت بالحياة القبلية والحياة العائلية التقليدية الرئيسية ، وعدم مشاركة المرأة مشاركة فاعلة ومؤثرة ، كما في مجتمع بغداد ، كما تميز المجتمع البصري بانه مجتمع عسكري اتجه نحو الاسترخاء وشاع فيه مذهب الاعتزال وجو المسجد ، كما كثرت فيه الاسواق والساحات العامة ، والميل نحو التنزه وطلب اللهو والمتعة ٠

وكان البصريون يجتمعون في حلقات يستمعون الى القصاص والمجان والمشعوذين وقد لاحظ الجاحظ(٢) انهم

---

(١) مروج الذهب ٦ : ١١٣

(٢) البخلاء ١٨٣ ــ ١٨٤

«يفيضون في الحديث ويذكرون من الشعر الشاهد والمثل ، ومن الخبر الايام والمقامات» وهذا يعني انه كان ينقل مايدور في المجتمع كما يشاهده ويلاحظه ولعله من اوفى الناس لنقل طابع مجتمعه وصفاته وطبقاته واتجاهاته وعاداته وتقاليده .

وليس ادل على ذلك من اهتمام الجاحظ بالمأكل والمشرب ووصفه للحياة اليومية ، واهل المسجد الذين كان معظمهم من اصحاب الجاحظ ، ويظهر لنا وقد خالط النحويين واللغويين والاعراب واهل الحاضرة ، والسارحين وراء حاجاتهم اليومية ، والقائمين على امر المساجلات والمغنين والمهرجين والهواة ، ومن اليهم . وقد يصف لنا اهل الطبقة الارستقراطية ، وما اعتادوا عليه من بذخ وتقاليد وما احتوت موائدهم من اطعمة ، وما اقاموه من حفلات في مناسباتهم الكثيرة المتكررة ، وما كانوا يحيطون به انفسهم من الشعراء والادباء ، وما تدور بينهم من مناقشات واحاديث . اما الطبقة البرجوازية فقد دخلت هذا الباب بنجاح فكان افرادها يقضون اوقات السمر خارج بيوتهم ويقيمون المآدب وينظمون شؤون الخدم الذين يعرفون الوان الطعام ويتقنون صنعه وتقديمه .

كما وصف الجاحظ ترف الخوان والاثاث واسلوب ترتيب البيت واشكال الاطعمة بصرف النظر عن الهدف من تقديم

الطعام(١) ان كان لمنفعة شخصية او لكرم فطر الكريم عليه ، واستتبع هذا كله الاشارة الى اللذائذ الناتجة عن تناول بعض المأكولات ، وما يمكن ان توفره الخمور والموسيقى والغناء والنساء والجواري لاولئك الذين يترددون على مجالس الانس والحفلات الصاخبة وما الى ذلك .

ان علينا ان نفرق بين حياتين : حياة المجتمع البصري العامة ، وحياة المجتمع البصري الخاصة ، حيث تظل حياة المجتمع البصري الخاصة محصورة داخل البيوت دون ان يطلع عليها احد . ويبدو ان الرجل البصري قد اراد ان يغلق عليه هذه الدائرة التي يعتبرها ملكه . وليس هذا الموقف بغريب ، ذلك ان ضعف الايمان عند الناس وانتشار الفساد وحب المال والسعي وراء الملذات افرز دونما شك بيئتين : احداهما وقعت تحت رقابة الرجال والثانية ظلت بلا رقيب او حسيب .

ولعلنا لاحظنا ان البصرة قد شهدت على ارضها وجود شعوب كثيرة عربية وغير عربية . وكان لكل شعب من هذه الشعوب اخلاق خاصة نقلها معه . ولم تتمكن هذه الشعوب من الاتفاق على مبادىء اخلاقية عامة يمكن الاعتراف بها الا

---

(١) انظر البخلاء ص ٣ ، ٦١ ، ١٨٥ ـ ١٨٦

بعد مرور عدد من العقود • كما ان احـدا من المصلحين الاجتماعيين لم يكن متوقعا ان يقوم بالاعلان عن الاحتجاج وتصوير المشكلة ومحاولة معالجتها عن طريق استنكارها وتحقيرها قبل ظهور مصلح ان جاز التعبير مثل الجاحظ ولا نود ان تتحدث عن الاخلاق الشاذة ، ولا عن درجة هـذه الاخلاق ومدى استكراه الاسلام بعامة لها والمجتمع البصري بخاصة ، ولكن قد يكون من المناسب الاشارة الى وجود بيئات اجتماعيـة استشـرى بها البخل والكـذب والرذيلة والفسوق والعصيان والاعلان جهارا نهارا عن اللصوصية والسرقة والحماقة ••• وما الى ذلك ، الامـر الذي لفت انتباه رجل عربي بصري يعيش بيئة تشهد تصارع ثقافتين : دينية ودنيوية ، وحضارتين : عربية وفارسية ، وموقفـين : قومي وشعوبي ، ومذهبين : سني وشيعي ، ولم يقف الامر عند هذا الحـد ، فمـا لبث السنيون ان انقسموا الى سنة اصوليين وسنة اعتزلوا المجلس الديني التقليدي ليكونوا فيما بينهم جماعة فكرية جديـدة اطلقوا على انفسهم طائفة المعتزلة • وسرعان ماأثرت هذه المواقف على اخلاق الناس واتجاهاتهم وفلسفاتهم ازاء بعضهم البعض ، وازاء الاشياء، وانتقلت السلبيات والايجابيات الى الاوساط الاخرى •

وعندما تتناول الناحية الاقتصاديـة نلاحظ على الفور ان وجود ميناء مائي عند ملتقى طرق قارية وبحرية ، انشأ

نشاطا تجاريا كبيرا ورافق هذا النشاط نشوء حياة اقتصادية مضطربة تقوم على الفساد والغش والخداع وارتكاب جرائم الربا • وقد تمكن البصريون بوصفهم تجارا ماهرين من عقد صلات تجارية مع مناطق اسلامية اخرى كما شهدت اسواق البصرة كثيرا من السلع التي كان الصينيون والهنود والافارقة يجلبونها بصفتهم مواطنين بصريين •

مقابل ذلك كانت البصرة تصدر التمور والاسماك واللحوم والالبان التي تشكل ثروتها الحقيقية وكانت ذات مستوى معيشي معقول واسعار السلع فيها رخيصة وخيرها كثير • وكان للبصرة نقودها الخاصة بها ومكاييلها ومقاييسها • ويسجل ابن قتيبة(١) ملاحظة طريفة عن البصرة حيث وصفها بأنها « خير بلاد الله للجائع والعزب والمفلس • اما الجائع فيأكل خبز الارز والصحناء ، ولاينفق في الشهر درهمين • واما العزب فيتزوج بشق درهم ، واما المحتاج فلا عيلة عليه •• » مما يدل على ان البصري ايا كانت درجته الاجتماعية وموقعه الاقتصادي كان يعيش بنفقة زهيدة •

ولا بد ان تكون اراضي المدينة قد استصلحت للزراعة ، على الرغم من غلبة المهارة التجارية على سكانها ، وتعاطي بعض فئات منهم الربا • وقد لاحظ شارل بلات(٢)

---

(١) عيون الاخبار ١ : ٢٢١

(٢) الجاحظ ص ٣٢٩

ان تحريم الربا على المسلمين وعدم درايتهم باصول الصيرفة قد اتاح لليهود والنصارى المجال لان يتعاطوا الربا والصيرفة. وكان من جراء هذا النشاط الاقتصادي ان افادت هذه الاطراف من هذا الجانب فوائد جمة ولا سيما في زمن التحريم القرآني وكانت مهنة الصيرفة في ايدي النصارى ، يؤيد ذلك حالة من البرجوازية كانوا يعيشونها ، في حين كان اليهود يتعاطون الربا . ويظهر ان الجاحظ قد اشار الى هذه الحالة في البخلاء(١) . كما اشار الى اكبر مرابي البصرة الذي كان يتعامل بهذا النوع من الربا فضلا عن اخرين كانوا موالي المدينة .

اما فيما يتعلق بالنشاط الذي كان سائدا في مركز المدينة فكان سببه ولا شك وجود البصرة على رأس ميناء بحري يطل على خليج يصلها بالمحيطات او ميناء بري يصل الجزيرة العربية بفارس والهند والشرق الاقصى . وقد اتاح هذا الموقع للمدينة القدرة على الاتصال بالمراكز التجارية وبالشعوب المجاورة ، وبالتالي تدفق انواع البضائع واشكالها المختلفة الى اسواق المدينة ، مما لايتاح لمدن عراقية اخرى ومزدهرة كبغداد والموصل وغيرهما .

(١) البخلاء ص ١٢٤ وانظر كذلك ما كتبه طه الحاجري بهذا الصدد ص ٣٣٨ .

وفي مجتمع كمجتمع البصرة لابد ان تتداخل السلطات الاقتصادية والروحية والسياسية والدينية تداخلا وثيقا ، ذلك ان المجتمع البصري قد شهد تعددية لغوية وعرقية ، ونشأت فيه الحياة الاجتماعية على خلافات بسيطة لاتعدو ان تكون خلافات شخصية او قبلية تافهة ، او خلافات اجتماعية كان هدفها الاحتجاج على التحضر بالاكراه • وكان الناس قد نشأوا على التوحيد الخالص والحياة الجماعية واقتسام لقمة العيش • وعند مقتل عثمان سنة ٣٥ هـ فجر هذا الحدث النزاعات العصبية والاحقاد المكبوتة وفتح مجالا للصراع على السلطة • وقد اقتضى الامر الصراع بين العثمانية والعلوية ، فالصراع بين الامويين والطالبيين فقتال الخوارج والشيعة فالنزاع العربي الاعجمي ، الذي اقتضى مقاومة السلطة وطغيان مطالب الشعوبية التي لعبت دور رئيسيا منذ القرن الهجري الاول ، وحاول الامويين ايجاد سياسة توازن بين الاحزاب والقبائل • وفي مجتمع كالبصرة كان لابد ان يتأثر بما حدث من نتائج لمعركة الجمل وتشكل حزب عثماني وما لبث ان نشأ فيها حزبان : حزب تميم وقيس من جهة وحزب الازد وبكر من جهة اخرى • يضاف اليهما اهل العالية الذين كانوا يقومون بدور الحكم على اعتبار ان فيهم شرف المولد والقدرتين المادية والمعنوية • ولم تجد ثورة زيد بن علي بالكوفة حوالي ١٢١ هـ نجاحا في

البصرة ، في حين لاقت فرقة الزيدية نجاحا اكبر وشهدت المدينة حركة ابراهيم بن عبدالله بن الحسن الذي اختفى في البصـرة ، وكانت حركته من اكثر الحركات الشيعية في المدينة اتساعا واكثرها نجـاحا • كما شهدت حـركة ابي السرايا • ثم انتقلت البصرة الى زيد بن موسى المسمى بزيد النار ، وهو طالبي علـوي اعتبرت حركتـه مستوحاة من التشيع المحض • ويسجل الجاحظ بعض الملاحظـات التي تدل على ان البصرة قد شهدت وجود اتباع لفرقة المنصورية والمغيرية في القرن الاول • ويرى الجاحظ انه كان في البصرة خناقون وآكلو لحوم البشر منهم رجال ومنهم نساء • كما ظهرت في البصرة عدة فرق شيعية كان منها غير ما ذكرنا : الكاملية والكيسانية وراج فيها مذهب الخوارج وظهرت فيها الزندقة والشعوبية • وما من شك في ان العصبية قـد خلقت العداوات التقليدية بين العرب والفرس وادى ذلك الى نشوء قومية تجاوزت حدود القبلية ، وسرعان ما اصطدم هذا الموقف مع المعطيات الدينية • وعندما تمكن الاعاجم من استمالة البيت السياسي الحاكم وترجيح كفتهم في اواخر القرن الثاني وابان القرن الثالث الهجريين عمد العرب الى شن هجوم معاكس بقيادة بعض الكتاب والادبـاء الذين تزعمهم الجاحظ وابن قتيبة الذين سخرا الاقلام ليكون الرد بوساطة الكلام والشعر والنثر •

وعندما ننتقل الى الوسط الادبي نلاحظ ان هذا الوسط سرعان ماظهرت عليه ملامح المجتمع البصري بسلبياته وايجابياته وتناقضاته واتجاهاته السياسية والاقتصادية والاخلاقية والاجتماعية • وقد تمثل الادب في اللغة والنثر والشعر على نشاطات تفرعت اصلا عن الدين الاسلامي وبحوثه ، في حين ظل الأدب واللغة ينقلان عن طريق الرواية الشفهية • وتعد البصرة موطنا خصبا للرواة الاعراب الذين كانوا يفدون اليها محملين بما يعجب اللغويين والشعراء والمؤرخين وفيها نشأ المذهب العقلي ، ونشأت القدرية وولد الاعتزال ، وفيها نشأت مدرسة للنحاة واللغويين ، قامت اساسا على الاستنتاج والقياس • ولعل هذه المدينة كانت من اوائل المدن الاسلامية التي فطنت الى ضرورة حصر اللغة العربية خوفا من الفساد الصوتي وعيوب النطق واللحن والاشتقاق المبني على اسس غير صحيحة • فضلا عن استعمال العامية ، وذلك على الرغم من ان الجاحظ يعتذر عن ايراد بعض الالفاظ العامية لان الاعراب في تصوره يفسد النوادر وينقض هذا الباب(١) ويخرجه من حده •

ولعل العناية بالالفاظ وفقه اللغة وجمع الشعر وتقييد

(١) البخلاء ص ٣٣

النحو كانت من الاولويات التي تنبه لها البصريون مبكرا . وقد يجوز الافتراض بأن كل بصري قد يكون على دراية بامور النحو . ذلك ان من كان عالما بالقراءة القرآنية كان نحويا بالضرورة . وكان منهم عبدالله بن ابي اسحاق المتوفى ١١٧ هـ وابو عمرو بن العلاء المتوفى ١٥٤ هـ الذي تتلمذ على يديه الخليل بن احمد ويونس بن حبيب والاصمعي .

ومن الذين تفتخر بهم البصرة في علوم النحو سيبويه المتوفى حوالي ١٧٧ هـ صاحب الكتاب والخليل بن احمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٠ هـ صاحب «معجم العين» اللذين اعتمدا في كتابيهما على الرواة والاخباريين الذين كانوا يزودونهما بالمعلومات . وقد وصف شارل بلات(١) هؤلاء الرواة بانهم مخبرون ، عارضون او متطوعون .

ومن اشهر الرواة ثور بن يزيد وابو سوار الغنوي واسعد بن عصمة الاعرابي المعروف بابي البيداء الرياحي وابو مهدية الاعرابي والمنتجع بن نبهان وعمرو بن عامر البهدلي ، وشبيل بن عروة الضبعي وربيعة البصري البدوي وغيرهم . وكما اعتمد اللغويون والنحويون والشخصيات

---

(١) الجاحظ ، شارل بلات ص ١٩١ وما بعدها .

التاريخية واخبارها والوقائع التاريخية والمغازي والفتوحات والفرق والاحزاب والعناصر العرقية وما الى ذلك •

وكما شهدت البصرة هذا النشاط ، فانها شهدت كذلك نشاطا شعريا ملفتا للنظر ، فقد كانت المدينة مركزا لجمع دواوين الشعر الجاهلي ، وفيها كان الرواة ينشدون ويملون الابيات التي استقرت في الاذهان • وللبصرة الفضل في هذا الامر ، ففيها كان المربد واقيمت حلقات اللغويين وفقهاء اللغة وشهدت في الوقت ذاته ولادة ما يسمى بالانتحال او الابيات الموضوعة• ولم يقف دور البصرة عند حد الرواية والتدوين، بل تعدى الامر الى العناية بالشعر السياسي الذي يعكس الصراعات الداخلية وتنافس الفئات والاحزاب ، وشعر المديح والهجاء والشعر البدوي الذي يمثله هلال بن الاسعر والوليد بن حنيفة التميمي وغيرهما ، والشعر الوصفي والشعر الغزلي والخمريات • هذا فضلا عن شعر الرجز الذي يعتبر شاعره العجاج من اكبر ممثلي شعر الرجز في البصرة • وما من شك في ان هذا اللون الذي استمر به ابنه رؤبة وعقبه من بعده ، اوسع الاشكال قبولا للطرديات والمنظومات التاريخية والتعليمية الطويلة وكان هذا البحر يقدم للغويين زادا متواصلا من الكلمات النادرة والغريبة ، وقد استشهد الجاحظ بكثير من ابيات الرجز في كتابه الحيوان •

وكما شهدت البصرة شعراء طبعهم العصر الاموي بطابع معين ، فقد شهدت شعراء طبعهم العصر العباسي بطابع معين ، كما كان منهم شعراء طوائف وشعراء زندقة ومجون وما الى ذلك . وكانت في ذلك تبرهن على انها كانت مدينة مؤثرة وكانت تقدم الجديد وتحترم القديم .

اما النثر الفني ، فيمكن اعتبار بداياته الفنية مصاحبة لظهور الشعر العربي . وان كان قد ظهر نثر قبل ولادة الشعر العربي فانه في اكبر الظن قد خلا من التأنق ، وبعد عن التكامل والتكيف التدريجي حسب مقتضيات التفكير والفن . ويبدو ان النثر — كما الشعر — ظل شفهيا طول القرن الاول للهجرة . ونجد تعبيرا له او انموذجات منه مثبوتة في الخطب ومواعظ الحكماء والقصاص والاحاديث التي كانت تلقى في الساحات والاسواق والمساجد .

بيد ان النثر الفني اذا كان قد اقترن بعبد الحميد وابن المقفع وهما كاتبان غير عربيين فقد سبق اليه كتاب من العرب . وضعوا له القواعد والاصول، ليتخصص عبدالحميد فيما بعد بالرسائل ويقوم ابن المقفع بمهمة وضع الاصول الادبية للنثر القصصي .

وفي البصرة وضع ابن المقفع الاركان الاساسية الاولى لاسس الادب على الرغم من انها اوجدت ناثرا اخر هو سهل

بن هارون • الذين كان الجاحظ يفتخر بانه ينسب اليهما مؤلفاته ولعل في كتب الجاحظ ما يدل على تأثره ببيئة البصرة ، وتأثيره بالتالي على النثر العربي • وما كان يمكن ان يتأتى له هذا لولا معرفته الواسعة باللغة وقدرته على التصرف في تراكيبها واتقان سبل انشائها واستغلالها استغلالا نافعا واستثمارها بطريقة مفيدة • وتزوده بالدربة والمران • وكانت لديه بصيرة نافذة وناقدة مكنته من ان يميز مابين الرديء من الكلام والشعر الجيد والمتميز منه ، كما كان عليه ان يطلع على ثقافة العصر ويلتحق باوساط الشعراء والمثقفين والادباء واللغويين والمؤرخين والمتكلمين والفقهاء واهل المنطق وسواهم هذا فضلا عن توجهه لمعرفة غريب المعاني وفصيح الالفاظ واعجميها ومجازها والحقيقي منها ، الامر الذي دفعه الى التعرف على البيان والاستدلال على الابانة والوضوح والمحسنات اللفظية والمعنوية وما الى ذلك•

في مصادر الكتاب ومحتواه

يتألف الكتاب من مقدمة وصف فيها الجاحظ المشكلة التي تشهدها البيئة التي ولد بها واقام بين اهلها ، فهو ابنها الذي ما انفك يحس بما تعانيه ، وبما تواجهه من مشكلات اجتماعية واقتصادية ، وظواهر غير مألوفة ما لبثت ان انتشرت في المجتمع العربي الاسلامي نتيجة عوامل متعددة.

والظاهرة التي يتناولها الجاحظ تحديدا هي ظاهرة البخل . ولكن هناك ظواهر اخرى يشير اليها الجاحظ اشارات مقتضبة ، ويفسرها او يتناولها في كتبه الاخرى كالحيوان والبيان والتبين ورسالة المعلمين وكتاب المسائل وغير ذلك . والذي يبدو واضحا للعيان ان الكتاب انما جاء للاجابة على اسئلة البخل والبخلاء ، واحتجاج الاشحاء، ولم سموا البخل اصطلاحا والشح اقتصادا ، ولِمَ جعلوا الجود سرفا والاثرة جهلا ، ولِمَ زهدوا في الحمد وقل احتفالهم بالذم ، ولِمَ رغبوا في الكسب مع زهدهم في الانفاق ، ولِمَ عملوا في الغنى عمل الخائف من زوال

الغنى •• ولِمَ احتجوا ــ مع شدة عقولهم ــ لما اجمعت الامة على تقبيحه ، ولِمَ فخروا مع اتساع معرفتهم بما اطبقوا على تهجينه •

ويثير الجاحظ في مقدمته عدداً من الاسئلة ، ويحاول ان يقرب اذهان القراء من المشكلة سواء أكانت الدوافع لها مادية ام معنوية ، فهو يتسائل عما خبل عقول هؤلاء الناس وافسد اذهانهم واغشى ابصارهم ، وما الشيء الذي بسببه عاندوا الحق ، وخالفوا الامم • وعلى الرغم من ان الجاحظ يحاول ان يستمر في السؤال او اثارة السؤال ، الا انه يحاول ان يعلن عن رأيه منذ اللحظة الاولى ، فهو يرى ان موقف البخلاء موقف شاذ عاندوا من خلال الحس وخالفوا الامم والتركيب الذي اتخذوه منهجا لهم تركيب متضاد ، ومزاج يتنافى مع ابسط ما عرف عن الانسانية بعامة والانسان العربي بخاصة •

والعجيب الذي يلاحظه الجاحظ هو ان هؤلاء على الرغم من غبائهم الشديد ، الا انهم يتحلون بفطنة عجيبة ، ويعلن الجاحظ عن عجبه بقوله(١) : وليس عجبي ممن خلع عذاره في البخل ، وابدى صفحته المذم ، ولم يرض من القول الا بمقارعة الخصم ، ولا من الاحتجاج الا بما رسم في

---

(١) انظر المقدمة ١ـ٢

الكتب ، ولا عجبي من مغلوب على عقله ، مسخر لاظهار عيبه ، كعجبي ممن قد فطن لبخله وعرف افراط شحه ، وهو في ذلك يجاهد نفسه ويغالب طبعه ، ولربما ظن انه قد فطن له ، وعرف ماعنده فموه شيئا لايقبل التمويه ، ورقع خرقا لايقبل الرقع ... ومع ذلك ، فهـو يستثني اولئك الذين لايستطيعون علاج امتهم وتقويم اخلاطهم وقلوبهم المدخولة، وانما يقصد اولئك الذين حملوا البخل كفلسفة لحياتهم ، ودخلوا غمار الحياة تحت هذا الشعار ففطنوا لعيوب الناس ولم يفطنوا لعيوبهم .

ويتناول الجاحظ في مقدمته ظواهر اجتماعية ، اخلاقية اخرى من مثل(١) تحسين الكذب وتقبيح الصدق ، والحاق الكذب بمرتبـة الصدق ، وفي حط الصـدق الى موضوع الكذب ... ومثل : تفضيل النسيان على كثير من الذكر ، والغباء على الفطنة ، وعيش البهائم على عيش العقلاء وغير ذلك .

وحيث ان الكتاب مبني اساسا في السخرية الهـادفة التي بنيت على النقـد اللاذع والتصـوير الكاريكاتـيري للمشاهد التي اراد المؤلف تصويرها ، وتنبيهه العقلاء اليها،

---

(١) يطلق الجاحظ على هذه الظاهرة « علة الجهجهاه ص٤ » ويسمى صاحب العلة بـ(ابو الجهجهاه النوشرواني) ص ٣٨

الا ان المؤلف اراد ان يتحدث عن هدف الكتاب العام حيث يقول(١) : ولك في هذا الكتاب ثلاثة اشياء تبين حجة طريفة، او تعرض حيلة لطيفة ، واستفادة نادرة عجيبة • وانت في ضحك منه اذا شئت وفي لهو اذا مللت الجد » وما دام الجاحظ قد اشار الى الضحك ، فقد فسر موقفه من هذه الظاهرة الانسانية بقوله(٢) : « ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك ، وقبيحا من المضحك ، لما قيل للزهرة والحبرة والحلي والقصر المبني كأنه يضحك ضحكا ــ وقد قال الله جل ذكره : «وانه هو اضحك وابكى ، وانه هو امات واحيا» فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت •• لان الضحك اول خير يظهر من الصبي ، وبه تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه ، ويكثر دمه الذي علة سروره ومادة قوته • ومع ذلك ، فالجاحظ يرى ان الضحك لاينبغي ان يكون الا بحدود ولابد له ان يكون له مقدار وموضع ، وكذلك الامر بالنسبة للمزاح والهزل والمباسطة •

ولعل كتاب البخلاء من اكثر آثار الجاحظ احتفاء بالسخرية الهادفة التي كان هدفها اظهار العيوب ومحاولة علاجها • وتكاد صفحاته بما كانت تحتوي عليه من مواقف كثيرة ومتباينة ، تجلو لنا صورة من الامراض التي انتشرت

---

(١) البخلاء ص ٤

(٢) المصدر نفسه ص ٥

في المجتمع العراقي بعامة ، والمجتمع البصري بخاصة . كما تبين لنا الحد الذي وصل اليه هذا المجتمع الذي ما كان يمكن ان يتغير او يتبدل عن الاسلوب الذي ساد فيه الا من خلال اظهار عيوبه وانحرافه . وقد اجتمعت للجاحظ ادوات الاديب المصور والمصلح الناقد والساخر ، فراح ينقد المجتمع ويوجه اليه التهم ، ويعلن عن احتجاجه على مايراه ويسمعه. اما منهجه ، فقد تمثل في ايـراد القصص(١) التي ترتبـط بنوادر البخلاء واحاديثهم واحتجاج الاشحاء ومواقفهم . وهو يرى ان هذا الموقف سيكون اجمع لهذا البـاب من وصف ماعنده دون ما انتهى اليه من اخبارهم على وجهها ، معتذرا عن ضآلة حجم الكتاب بعـد ذلك ، وبالتالي فان العار فيه يصبح اقل . واذا كانت قصص الجاحظ تدور في معظمها ، حول الاشحاء والبخلاء ، وحول المكدين والعيابين، فان ما يتضمنه الكتاب من فوائد اخرى كبيرة وواسعة . فثمة فوائد اقتصادية وثمة فوائد تاريخية تطلعنا على ازياء العرب واطعمتهم واحوالهم ومعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم وما يدور في مجتمعهم من عادات وتقاليد في مجالات حياتية شتى .

ونـرى الجاحظ يسرد لنا بعض الخـرافات الشائعة

---

(١) البخـــلاء ص ٤

والاعتقادا تالباطلة ، فهو يروي(١) في احدى الوصايا التي سجلها ما يفيد بأن صاحب الوصية ، في سبيل جمعه للاموال، قد بات بالقفر مع الغول وتزوج السعلاة ، وجاوب الهاتف، وراغ عن الجن الى الجن ، واصطاد الشق وجاوب النسناس صحب الرئي وما الى ذلك(٢) •

والواقع ان الجاحظ في كتابه قد فتح اكثر من باب ، منها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ، ومنها الاخــلاقي والاسطوري والديني • ويرى الأستاذ جورج غريب(٣) ان في المقدمة تحليلا لنفسية البخيل ، واظهار لعجزه عن اصلاح معايبه ، وهو ينتحل الاعذار ليخفي خلة البخل فيه ، ويجعلها اقتصادا او ادخارا • وقد لايكون الامــر على هذه الشاكلة بشكل سافر ومعلن ، ولكن من المؤكد ان الجاحظ ، ان لم يكن غرضه تحليلا لنفسية البخيل والتشنيع عليه ، او حتى الاصلاح الخلقي من خلال النقد الذي قد يصل الى حــد التجريح ، ان لم يكن يهدف الجاحظ الى هذا ، فان غاية الكتاب الاولى كانت المتعة الفنية والاضحاك • وربما كانت

(١) المصدر نفسه ص ٤٠

(٢) المــوروث الشعبي في اثــار الجاحظ/ المــركز الفولكلوري العــراقي ، بغـــداد : وزارة الاعـــلام ، ١٩٧٧ ، ص· ١٠٨ ــ ١١١ •

(٣) جورج غريب / الجاحظ : دراسة عامة ط٣ بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٥ • ص ٧٦

الحجة التي استند اليها الباحثون هو ما لجأ اليه الكاتب من اسلوب وضعه على السنة البخلاء ، ودار حول دفاعهم عن مناهجهم الحياتية وذم الاسراف تحسبا لتقلبات الزمان •

والذي لايشك فيه باحث هو ان الجاحظ عندما لاحظ مشكلة اجتماعية تتفاقم ويتسع نطاقها ، سارع الى التأليف فيها باسلوبه الساخر الناقد المعروف • وربما كان الصديق الذي اجابه ، صديقا حقيقيا ، وربما اصطنع الاجابة لتصديق وهمي ، فاعلا ذلك تلبية للضرورة القائمة ، وهي تصوير فئة يراها بأم عينيه او سمع عنها ، وتمثل في مجموعها المجتمع البصري بخاصة ، والمجتمع العباسي بعامة ، تلك التي تقدم المال على كل شيء ، وتعتبره أُسس الحياة واغلى مافيها •

وقد نمت هذه النظرة للمال في مجتمع البصرة بخاصة، ولا عجب في ذلك ، فهي مدينة كانت قـد نشأت لتوها ، وعرفت شعوبا شتى ، وسكنها العرب البـدو واهل الريف واهل المدن الكبيرة المفتوحة الذين وفدوا اليهـا • كمـا احتكت هذه الشعوب بشعوب اخرى كانت تفد اليها من بلاد بعيدة وقريبة ، وتدخل المدينة عن طريق الخليج او عن طريق الرافدين او عن طريق البر • وكان كل شعب من هذه الشعوب يحمل معه ثقافة اجتماعية تختلف عما ألفه العرب في مجتمعاتهم • وربمـا وجد الجاحظ في مدينة البصـرة ،

مسقط رأسه ، ان حالة اجتماعية اقتصادية ، اخذت تتطور، وتحاول ان تغير ماكان مألوفا في المجتمع العربي ومستقرا فيه ، فتنبه الى هذه الظاهرة ، وراح يسجلها تسجيلا ساخرا، محاولا من خلال ذلك ان ينفذ الى خوالج النفس البشرية .

ولم تكن شخوص الجاحظ شخوصا خيالية او متوهمة، كما ان افكاره لم تكن بعيدة عن المجتمع الذي يعيشه ، بل كانت الشخوص بصريين او بغداديين ممن يعاصرونه ، وكانت الوقائع مما يراه او يراقبه او يخصه . ومن السهولة بمكان التعرف على البصريين منهم ، كما انه من السهولة التعرف على اصدقاء الجاحظ وخلطائه ومعاصريه ، او الذين سمع عنهم ولم يتصل بهم ، او الذين تلقى روايات عنهم ، او الذين سبقوه ، او كانوا بصريين ، ثم اصبحوا بغداديين ، او ارتحلوا الى مدن اسلامية اخرى . وعليه فاننا نرى ان شخوص الجاحظ في الكتاب كانوا من المصادر الاساسية التي قام عليها الكتاب ، ذلك انهم كانوا اما شهود عيان على احداث البخل وعلى البخلاء ، او كانوا هم البخلاء انفسهم ممن وصفهم الجاحظ بالصديق والولي والمستور والمتجمل .

ومن هنا جاءت اشارة الجاحظ لهذه المصادر بقوله(١) : « هذه ملتقطات احاديث اصحابنا واحاديثنا وما

(١) البخلاء ص ١٣٥

رأينا بعيوننا » • وما من شك في ان الجاحظ قد اعتمد على مصادر اخرى • وربما كان ابو الحسن المدائني(١) احد اولئك الذين اعتمد عليهم الجاحظ • وهو ممن سبقوا الجاحظ الى التأليف في هذا المجال ، ونراه او من عني بمعالجة امور البخلاء • وعلى الرغم من هذه الاولوية الا انه ظل دون مرتبة بخلاء الجاحظ من حيث دقة المراقبة للظاهرة وتصوير شخوصها ، وتطويع الاسلوب ، والمرونة في السرد القصصي والحوار • كما كان من مصادره ابو عبيدة(٢) ، الذي نقل عنه الجاحظ ما كان سجله في كتاب المثالب وكتاب الضيفان • ويقال انه الف كتابا في مثالب اهل البصرة مع كونه بصريا • وربما نقل عنه الجاحظ ما كان اخذه عن الامويين من بخل • وبسبب كونه خارجيا ، فقد تكلم في القدرية ، ونقل عنه الجاحظ شيئا من اقواله في الاطعمة وما الى ذلك • ولكنه يتهم الهيثم بن عدي بالوضع ، لانه يروي له احاديث تخالف مذاهب العرب • وفي ذلك يقول(٣) : « وانا اتهم هذا الحديث ، لان فيه ما لايجوز ان يتكلم به عربي يعرف مذاهب العرب » •

---

(١) البخلاء • انظر منقولات الجاحظ عنه في الصفحات ٥٠ ، ١٢٠ ، ١٣٥ ، ٢٥١ ، ٢٩٢

(٢) المصدر نفسه انظر المنقولات في الصفحات ٥٨ ، ١٣٥، ١٧٥ ، ٢٠٧ •

(٣) المصدر نفسه ص٢٠٣

ونبه الجاحظ الى ظاهرة وضع الاخبار والاحاديث في كتابه هذا ، فاتهم رواة كثيرين بهذا الصدد ، تماما مثل ما ظهر لنا في الامثلة السابقة • وقد لاحظ الاستاذ طه الحاجري(١) ان معظم الوضاعين كانوا شعوبيين لان روح الخصومة قد اشتدت ، فكان لابد ان تضع الرواية نفسها في خدمة هذه الحالة • وكذلك كثر وضع الاخبار والاحاديث للاغراض السياسية او العرقية ، فنرى مثلا رجلا مثل الهيثم بن عدي يستغل معرفته بالاخبار وشهرته بالرواية، فيضع الاخبار والاحاديث ويلفقها في مثالب العرب ، وفي الحط من قدر اولئك الذين يفخر العرب بهم من الجاهليين والاسلاميين •

على ان مصادر الجاحظ لم تنحصر في الرواة وحدهم بصرف النظر عن مواقعهم ومواقفهم وانما امتدت الرواية لتشمل الموروث الادبي باشكاله المتعددة ، والموروث الديني وعلى رأسه الايات الكريمة والاحاديث الشريفة • ومن السهولة بمكان التعرف على الموضوعات التي اغرت الجاحظ في ان يحشد لها الشواهد التي تؤيد مايذهب اليه مستمدا معلوماته مما يحفظ في ذاكرته • ولقد ظهرت هذه الموضوعات في الكتاب مستمدة قوتها من الموضوع العام الذي استند بكلياته وجزئياته الى البخل والبخلاء •

---

(١) البخلاء ص ٣٠

بما في ذلك : المال والاقتصاد والكرم والكرماء والشح والاشحاء والفقراء والاغنياء والتجار والسوقة والطعام بانواعه واشكاله ، والملاك والمستأجرين والكذاب والمنافقين والنساك والزهاد والفتاك والمجان والبدو والحضر والمتندرين والقصاص والمضحكين والمكدين والعيابين والصناع والشعوب والفرق واللصوص واهل الاعتزال والطبقات الاجتماعية والشعراء والابطال والشيوخ والولاة والامراء والرؤساء وغير ذلك .

ولم يكن غريبا على مؤلف مثل الجاحظ يعيش في بيئة مثل البصرة ان يقدم الشواهد لما يسجله ويؤلف فيه ، ذلك ان البيئة قد شهدت عصرا اصبحت المعلومات فيه مطلب الادباء والمؤرخين والرواة وغيرهم ، واحتلت الرواية فيه المكان الاول والمقام المرموق . وكان هؤلاء الرواة وبعض العلماء يستمدون المعلومات او يطلبونها من البدو الذين يفدون الى مدينة البصرة ، مصطحبين معهم ما يمكن ان يقايضوا به من اشياء تهم معاشهم ، وقد حملوا معهم موروثا اصبح فيما بعد ذا قيمة ، لاسيما عندما بدأ هذا الموروث يدخل في مجال الرواية . وما من شك ان اكثر البيئات تقديرا لهذا الموروث كانت بيئة البصرة التي اختلطت فيها الشعوب حتى اصبح العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان . ولعل خير دليل على ماتذكر هو ان الجاحظ عندما ألف كتابه البخلاء لم

يتوان في ان يدخل في صلبه عددا لا يستهان به من الالفاظ الاعجمية ، ولاسيما الالفاظ التي تشكل مفاتيح الموضوعات الكبرى بل ان مثل هذا الموقف منه كان طبيعيا وذلك استجابة لما كانت تفرضه البيئة التي كان يعيش فيها .

ازاء هذه الحالة كان لابد للجاحظ ان يصف بيئة البصرة ، وان يشير الى فضل البدو(١) الذين كانوا عندما يدخلون البصرة يحملون معهم هذا الموروث « يذكرون من الشعر الشاهد والمثل ، ومن الخبر الايام والمقامات » .

وكانت هذه المعلومات تروى رواية ، وكان الحفظة يحفظونها في صدورهم ، في حين كان المتعلمون والكاتبون يسجلونها ليستخدموها فيما بعد منظمة مبوبه موزعة حسب مقتضى الحال . ومهما يكن من امر مصادر الجاحظ وشواهده ، وسواء اكانت مصادر اساسية او مصادر مساعدة او مصادر خادمة للفكرة او الموضوع ، فان الذي لا نشك فيه هو ان الشواهد التي سجلها في كتابه جاءت من اجل وجهة نظره ، او من اجل وجهات النظر المختلفة او القريبة من بعضها البعض . وقد استحضر من افكار الغير ما ينسجم ومعاني الكتاب ، ويوضح الافكار والاراء والمعتقدات ، ويساعد في تكثيف المعنى المقصود .

---

(١) البخلاء ص ١٨٤ .

وقد اراد الجاحظ ان تخاطب الشواهد العقل والقلب معا ، وان تعلن عن العلاقة الحميمة بين الموضوع والموروث لتأكيد اهمية الظاهرة الانسانية التي لم تكن طارئة او مفاجئة وانما كانت بالنسبة للجاحظ ظاهرة تتصل بالعنصر الانساني ولكنها اتخذت في البصرة شكلا محسوسا وظاهرا حتى باتت البيئة البصرية تألفها وتعيش معها .

ومن الواضح ان المؤلف قد اراد لشواهده ان تساعده في تأكيد صحة تجارب انسانية . واذا كان قد اعتمد على الموروث ، فانه كان يدرك ما يحمله هذا الموروث من دلالات ، وما يتمتع به من حركة محورية في التاريخ . والواقع ان علاقة العربي بالموروث كانت علاقة حميمة ، فهو لايستطيع ان ينقطع عن الموروث ، كما لايستطيع الا ان يقيم علاقة تواد وتراحم وتواصل مع هذا التراث . وهو يتعامل معه في اطار من الوعي الرسمي والشعبي التاريخي .

واذا كان الجاحظ قد حدد شواهده وحصرها(١) في :

---

(١) تتبع الشواهد المقصودة على النحو التالي :

— الايات الكريمة صفحات ٩ ، ١٧ ، ٢٥ ، ٣٨ ، ١١٥، ١٦١ ، ١٦٩ ، .... الخ

— الاحاديث النبوية صفحات ٩ ، ١٢ ، ٢٥ ، ٦٥ ، ٦٧، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٧ ، ١٤٩ ... الخ

←

الايات الكريمة : والاحاديث الشريفة واحاديث الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والائمة ... وكذلك الشعر والامثال والحكم واقوال العامة ... وما الى ذلك ، فانه لم يقف عند حدود النص المقتبس ، وانما تعدى ذلك الى الاستفادة من المعنى العام . وفي كثير من الحالات كان يشير الى الاية او بيت الشعر او الحكمة او المثل دونما تقيد بالنص الاصلي ، اما تخفيفا للنص النثري ، واما بسبب عدم استحضار سريع للنص الصحيح .

علما ان هناك بعض الظواهر التي تضمنها الكتاب من مثل الظاهرة التي تتمثل في ان الجاحظ قد نقل اقوال العامة، اوترجم لفكرها عندما يقول(١) « والعامة لم تقصر في الطلب .. او ... فان قضيتهم بقول العامة فالعامة ليست

— احاديث الصحابة والتابعين صفحات ١٢ ، ٦٥ ، ٩٦، ٩٧ ، ١٨٦ .... الخ
— الشعر صفحات ١١ ، ٣١ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٩٥، ٩٩ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١٢٤ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٤، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٦٣ ـ ١٦٨ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ١٩٥ ـ ٢٠٤ ... الخ
— الامثال والحكم صفحات ٩ ، ١٠ ، ٢٠ ، ٢٢ ٢٣ ، ٤٤، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٣٣ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٥١ـ ١٥٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ..... الخ
— اقوال العامة صفحات ١٤٨ ، ١٥٧ ... الخ
(١) البخلاء ص ١٤٨ ، ١٥٧

بقدوة » • والظاهرة الثانيـة تنطلق من مبـدأ الشواهد الشعرية حيث يسخر الجاحظ هذا الشعر لخدمة غرض محدد سجله في الكتاب وهو الطعـام حيث حشد لـه الشواهد الموصولة والقصائد التـامة • ولعـل في ذلك مايؤكد دور الشعر النفسي عند العرب • علما ان الظاهـرة التي تلفت النظر هـو استخدام الالفـاظ الدخيلة بشكل لم يسبق له مثيل ، وقد لانجد له نظيرا في كتب الجاحظ الاخرى • وقد انتشرت هذه الالفاظ انتشارا ملحوظا حتى يخيل للباحث ان استخدامها كان مقصودا لذاته وانه يمكن التعرف عليها بسهولة ويسر • ومن الجـدير بالذكر ان الاستاذ الدكتور ابراهيم السامرائي قد استخدم من كتاب البخلاء مادة تتصل بالدخيل والمعرب • ورتبها(١) على حـروف المعجم مشيرا الى معانيها واستعمالاتها في كتب اللغة ومضيفا اليها مايدخل في لغة العوام واصطلاحاتهم • وقد ختم هذه الطائفة من الدخيل والمعرب بمجموعة من الالفاظ التي وجدها في كتاب البخلاء ولم يجدها في سائر كتب اللغة •

ولكن ينبغي علينا ان نقول بأن الجاحظ لم يقف عند حدود الالفاظ في كتابه ، فقد تعدى ذلك الى تسجيل بعض

---

(١) مجلة التراث الشعبي / د• ابراهيم السامرائي ، ع٦ + ٧، السنة الخامسة ١٩٧٤ ، بغداد ص ٢٣ ـ ٦٠

الحكم والامثال والاقوال باللغة الفارسية(١) ، مما قد يدل ان القوم كانوا عارفين بهذه اللغة ، بل ان هذه اللغة قد اثرت في العربية التي ما لبثت ان استجابت للتأثير، فاستعارت منها بعض الالفاظ التي سرعان ماعربت وتداولتها العامة .

علما بأن الجاحظ لم يقف عند حدود الشواهد ، التي استمدها من الاشكال الادبية ، بل تعدى ذلك الى الاستعانة بالقوالب الادبية المألوفة كالرسائل والوصايا والقصة والحوار ، فسجل في كتابه بعض الرسائل التي تنسجم وموضوع الكتاب العام من مثل رسالة سهل بن هارون ورسالة ابي العاص ، وبعض الوصايا من مثل وصية خالد ابن يزيد وما الى ذلك .

واذا كان الجاحظ قد افرد للرسائل والوصايا ابوابا ، فقد اعتمد على بعض الرسائل التي يسجلها داخل القصة الواحدة ، كما حدث في قصة الكندي(٢) .

واتبع الجاحظ اسلوب القص بهذا الشأن ، كأن يقول: قال معبد : فبينا انا كذلك اذ قدم ابن عم لي ومعه ابن له ، واذا رقعة منه جاءتني « او يقول : فاكتب لي بعذرك لاعرفه ... فكتب اليه » .. وهكذا .

---

(١) البخلاء ص ١٨

(٢) البخلاء ص ٧١ وما بعدها .

والحق ان كتاب البخلاء في حقيقته مبني على القص • وربما احتلت القصص فيه اكثر مما كان متوقعا ، ذلك ان الكتاب يحتوي على انموذجات فريدة من اشكال البخل وضروب البخلاء • وحتى يتمكن الجاحظ من ايصال افكاره الى الاخرين ، فقد كان عليه ان يعتمد أسلوب القص الذي اتخذه شرعة ليحقق من خلاله اهداف الكتاب وغاياته •

ولا بد ان يكون الجاحظ قد استعار القوالب القصصية التي كانت سائدة في عصره ، وهي قوالب لم تكن تستند في كثير او قليل الى القواعد الادبية بمقدار ما كانت تستند الى ايراد الخبر المبني على الرواية الشفهية المتداولة • وكان على الجاحظ ان ينقلها كما وقعت او كما تروى لا كما ينبغي ان تكون القصة •

ومن الشواهد التي يمكن الاستعانة بها هذه القصة(١) : قال معبد : نزلنا دار الكندي اكثر من سنة ، نروج له الكراء، ونقضي له الحوائج ، ونفي بالشرط • قلت قد فهمت ترويج الكراء وقضاء الحوائج ، فما معنى الوفاء بالشرط ؟ قال : «في شرطه على السكان ان يكون له روث الدابة وبعر الشاة ونشوار العلوفة ، والا يلقوا عظما ، ولا يخرجوا كساحة ، وان يكون له نوى التمر ، وقشور الرمان ، والغرفة من كل

---

(١) البخلاء ص• ٧١

قدر تطبخ للحبلى في بيته • وكـان في ذلك يتنزل عليهم ، فكانوا لطيبه وافراط بخله وحسن حديثه يحتملون ذلك »•

وهي قصة مسطحة كما هو واضح بل انها اقرب مايمكن الى الخبر الذي يهدف الى تحقيق غاية محدودة معروفة سلفا • بيد ان قصص الجاحظ لاتسير جميعها على وتيرة واحدة ، فهناك من القصص مايرتفع الى المستوى الفني المطلوب ولكن دون ان يحقق الشروط الفنية المعروفة ، كما في القصة التالية التي يعتبر الجاحظ نفسه شاهداً عليها ، بل انه مع ابن ابي المؤمل والسدري جزء لايتجزأ من الاحداث(١) :

اشترى ـ والضمير هنا يعود الى ابن ابي المؤمل ـ مرة شبوطة ، وهو ببغداد • واخذها فائقة عظيمة ، وغالى بها وارتفع في ثمنها ، وكان قد بعد عهده بأكل السمك وهو بصري لايصبر عنه • فكان قد اكبر امر هذه السمكة ، لكثرة ثمنها ، ولسمنها وعظمها ولشدة شهوته لها • فحين ظن عند نفسه انه قد خلا بها ، وتفرد بأطايبها وحسر عن ذراعيه وصد صمدها ، هجمت عليه ومعي السدري • فلما رآه راى الموت الاحمر والطاعون الجارف ، وراى الحتم المقضي ، وراى قاصمة الظهر ، وايقن بالشر ، وعلم انه ابتلي بالتنين •

---

(١) البخلاء ص ٨٨ وما بعدها

فلم يلبثه السدري حتى قور السرة بالمبال • فاقبل علي فقال لي : ايا ابا عثمان السدري يعجبه السرر « ، فما فضلت الكلمة من فيه ، حتى قبض على القفا فانتزع الجانبين جميعا، فاقبل علي فقال : والسدري يعجبه الاقفاء ، فما فرغ من كلامه الا والسدري قد اجترف المتن كله ، فقال : يا ابا عثمان والسدري يعجبه المتون » ، ولم يظن ان السدري يعرف فضيلة ذنب الشبوط وعذوبة لحمه وظن انه سيسلم له ما ظن معرفة ذلك من الغامض ، فلم يدر الا والسدري قد اكتسح ما على الوجهين جميعا • ولولا ان السدري ابطره واثقله واكمده وملأ صدره وملأه غيظا • لقد كان ادرك معه طرفا • لانه كان من الاكلة • ولكن الغيظ كان من اعوان السدري عليه • فلما اكل السدري جميع اطايبها ، وبقي هو في النظارة ، ولم يبق في يده ماكان يأمله في تلك السمكة الا الغيظ الشديد ، والعزم الثقيل ، ظن ان في سائر السمكة ما يشبعه ويشفي من قرمه • فبذلك كان عزاؤه ، وذلك هو الذي كان يمسك بأرماقه وحشاشات نفسه • فلما رأى السدري يفري الفري ويلتهم التهاما ، قال : « ياابا عثمان السدري يعجبه كل شيء • فتولد الغيظ في جوفه واقلقته الدعوة • فخبثت نفسه ، فما زال يقيء ويسلح ، ثم ركبته الحمى • وصحت توبته وتم عزمه ، في ان «لا» يؤاكل رغيبا ابدا ، ولا زهيدا ، ولا يشتري سمكة

ابدا رخيصة ولا غالية ، وان اهدوها اليه ان لا يقبلها ، وان وجدهـا مطروحة لا يمسها • وهكذا يبـدو لنا بوضوح ، مذهب الجاحظ في القص ، فهو يعتمد على قالبه العام دون ان يلتزم بشكله الفني ، وهـذا يعني انه اتـاح لنفسه ان يتصرف فيه ويعدل في الشكل والمحتوى والتكتيك ، بمـا يتلاءم وبيئة البصرة التي كانت تحتم عليه ان يتعامل بالحدث قبل ان يتعامل بالناحية الفنية • وقد كلفت الجاحظ هـذه الناحية عدم احتفاله بالقضايا التنظيمية للقصة •

واذا كانت هذه القضايا لم تأخذ من الجاحظ الاهتمام الكافي ، فقد التفت الى بيئة البصرة فأبرزها واظهر شخوصها بابعادهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، كما اظهـر خصائص المدينة التي شهدت تحولات كبيرة ، الأمر الذي دفع الجاحظ الى تسجيلها كملاحظات اودعها في كتابه واختار لها القالب القصصي المناسب •

ولقد اظهر الجاحظ من خلال الاسلوب الذي استخدمه خصائص البصرة الثقافية ، ولعله اراد اسلوبا يجمع بين اللغة الفصيحة واللغة المحكية المعربة واشاع في اسلوبه الالفاظ التي تكاد ان تقترب من الافهام جميعهـا • وحيث انه على اطلاع بلغات الاجناس التي كانت تسكن البصرة ، ولانهـا كانت تشكل جزءا مهما له نفوذه في المجتمع البصري ، فقد

اشاع في كتابه الالفاظ المتداولة والمصطلحات المعربة التي جلبوها معهم ، والتي تحوم في معظمها حول الطعام واشكاله وانواعه والوانه وانماط الحرف اليدوية والصناعات التقليدية • وربما هدف من وراء هذا الاسلوب القصصي الى توجيه الخط العام للفكاهة والسخرية من التحولات التي يشهدها المجتمع • ويبدو ان المجتمع البصري كان يحتاج لمثل هذا الاسلوب ، او ان هذا الاسلوب كان شائعا ومفهوما حتى تمكن من قوالب الاشكال التعبيرية ، وفرض نفسه بقوة على الحياة الادبية في القرن الثالث الهجري •

ومهما يكن من امر ، فعلينا ان نعترف بأن مصادر الجاحظ تشير الى ثلاث حقائق • التوثيق العلمي • اللغة والاسلوب والموضوع • اما الحقيقة الاولى فهي امر لافت للنظر ، فالجاحظ من الباحثين الدارسين الذين يحرصون على التزام المنهج العلمي في الكتابة ، وما يتطلبه المنهج هذا من توثيق للمصادر والمراجع ، فالخبر يرده الى راويه ، والشعر الى شاعره والآية الى القرآن والحديث الى مصدره ، واما الحقيقة اللغوية والاسلوبية فهي تضفي على الكتاب اهمية خاصة ، فأسلوب الجاحظ فريد من نوعه يعلو على كل اسلوب ويجتمع فيه خصيصة السهولة والبساطة ليقترب بها الى اذواق القراء ، لاسيما وانه يتعامل مع ظاهرة عامة لها امتداداتها وجذورها الشعبية • اما الموضوعية فلا سبيل الى

انكار سيطرتها من كتابه البخلاء • واذا كان الجاحظ قد استطرد في بعض كتبه الا انه استطاع ان يتجنب هذا العيب في كتابه هذا ، اذ قلما نعثر على قضية تثار دون ان يكون لها مساس بالموضوع العام •

١ ـ محتويات الكتاب

يبدأ الجاحظ بتسجيل رسالة سهل بن(١) هارون ، التي يوجهها بالخطاب المباشر الى محمد بن زياد والى بني عمه من آل زياد ، حيث يطلب منهم الكف عن ثلبه والحاق العيوب به • ثم يتناول من فئات البخلاء اهل(٢) خراسان لظهور ظاهرة البخل بينهم بعامة وشيوعها في اهل مرو بخاصة • ثم يتناول من فئات البخلاء اهل البصرة من المسجديين(٣) فيتحدث عن ظاهرة ملوحة مياه البصرة والشح فيها ، وعن الاقتصاد الذي يفضي برأي بعض البخلاء الى اصلاح • ومن الملاحظ ان معظم المتحدثين ، ممن يروي الجاحظ عنهم كانوا من الشيوخ ، وربما ممن عاصرهم الجاحظ •

ويعود بعد ذلك للحديث عن البخلاء الافراد ، فيروي

(١) البخلاء ص ٧ ـ ١٢
(٢) المصدر نفسه ص ١٣ ـ ٢٣
(٣) المصدر نفسه ٢٤ ـ ٢٨

قصة زبيدة(١) بن حميد الذي يضرب به المثل في الحرص ، وقصة ليلى(٢) الناعطية ، صاحبة الغالية وموقف الوليد(٣) القرشي من الاصدقاء الذين رغبوا في الميل الى منزله اتقاء للحر فرفض جاعلا الاسى حجة في المنـــع ، وتعلل ابي مازن باعذار واهية ليتخلص ممن اراد المبيت عنده . وآراء احمد ابن خلف(٤) اليزيدي الذي ورث عن ابيه الاموال الطائلة ليقدم المشورة في ضرورة تناول الحساء ، ويتغافل عن دعوة اخوان له كانوا مخاصيب مناويب اصحاب نفـــح وترف ، يتحفونه ويدللونه ، ويفكهونه ويحكمونه .

ويخصص الجاحظ حديثا خاصا لخالد(٥) بن يزيد ، مولى المهالبة ، الذي قد بلغ من البخل والتكدية وفي جمع المال المبالغ التي لم يبلغها احد ، وينسب له الجاحظ وصية قالها لابنه عند موته ، وفيهـــا يدعوه الى ان يسلك سبيله ، ويتبـــع طريقه واثـــره ويتخذ اسلوبه في التكدية والاحتيال والمهارة قائلا : « فان سلكت سبيلي صار مال غيرك وديعة عندك ، وصرت الحافظ على غيرك ، وان خالفت سبيلي صار

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩ ـ ٣٠
(٢) المصدر نفسه ص ٣١
(٣) المصدر نفسه ص ٣٢ ـ ٣٣
(٤) المصدر نفسه ص ٣٤ ـ ٣٦
(٥) البخـــلاء ص ٣٩ ـ ٤٤

مالك وديعة عند غيرك ، وصار غيرك الحافظ عليك » وما يلبث ان يقدم له النصح لو ذهب ماله •

اما الحزامي والكندي فيفرد لكل واحد منهما فصلا • فبعد ان يعرف بالحزامي(١) كاتبا لموسى وكاتبا لداود بن ابي داود ، واصفا اياه بأنه كان ابخل من برأ الله واطيب من برأ الله ، يروي له بعض حكاياته في البخل ، ولا سيما في مجال الصوف والقميص الجديد ، واتخاذ مشط الصندل ، وتوزيعه زقاق الدبس وذلك لان تخزينه له يعني ضرورة دفع المبالغ •

اما الكندي(٢) فكان يحتال على الجيران ويبدي لهم الحجج لكي يحصل على الطعام مصورا لهم حالات انسانية بائسة ، ومعبرا عن عوز لايطاق ، فكان « ربما يوافي الى منزله من قصاع السكان والجيران مايكفيه لايام » • وكان يدفع الدين مقطعا ، كما كان يستثقل الكراء • وكان حكيما في البخل حاضر الحجة يتباخل على اهله مثلما يتباخل على اصدقائه •

اما قصة الحارثي وابن ابي المؤمل ، فقصة كل منهما تشبه الأخرى ، فالرجلان كريمان وكان يمكن لكل منهما ان يعلن عن كرمه ويجد الترحيب والرضا لولا مخافة كل منهما

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٢ ـ ٥٨
(٢) المصدر نفسه ص ٧٠ ـ ٨١

من شيء بل اشياء ، فالحارثي(١) يقــوم على صنع الطعــام وتعظيم النفقة ، والمغالاة في اتخاذ الخباز والطباخ والشواء والخباص • وكـــان لايشهد على طعامــه احد مخافة المراعاة والتعيير او التغافل والشفقة او المعــرفة والنكران •وقصة الحارثي هذا تشبه قصة محمد بن ابي المؤمــل(٢) ، الذي كان يطعم الطعام ويتخذه وينفق عليه المال • وفي حـــين لاحظ عليه الناس بخلا في الخبز ، والناس يبخلون من قل عدد خبــزه ، يــرى ان ما يصنعه هو ادل على سخاء النفس بالمأكول وادل على الاحتيال ليبالغوا ، لان الخبز اذا كثر على الموائد ورث ذلك النفس صدودا ، وكل(٣) شيء من المأكول وغير المأكول اذا ملأ العــين مــلأ الصدر ، وفي ذلك موت الشهوة وتسكين الحــركة • وهو مع ذلك ، يظهر بخلا في طعامه ويستعمل الخداع والمكايد والتدبير ، ما لم يبلغ بعضه المشهورون من مثل : قيس بن زهير والمهلب بن ابي صفرة وخازم بن خزيمة وهرثمــة بن اعين ، وكـــان عنده فيه من الاحتيال ما لايعرفه عمرو بن العاص ولا المغيرة بن شعبة وغيرهما ممن عرفوا بهذا الامر •

---

(١) البخـــلاء ص ٥٩ ـ ٦٥
(٢) المصدر نفسه ص ٨٢ ـ ٨٩
(٣) المصدر ص ٨٢

ومن البخلاء اصحاب النوادر اسد بن(١) جاني الذي كان طبيبا ، ويروي له الجاحظ بعض الملاحظات التي تدل على كساد بضاعة الطب عنده ، من مثل قــوله : اما واحدة فاني عندهم مسلم • انالمسلمينلا يفلحون في الطب ، واسمي اسد ، وكــان ينبغــي ان يكون اسمي صليبا وجبــرائيل ويوحنا •

اما عبدالرحمن الثوري(٢) ، فامره مختلف • فهو على الرغم من كثرة امواله وسعة الارض التي يمتلكها ، واصطناعه التجارة ، الا انه كان من بخلاء البصرة المعدودين ، ويورد له الجاحظ عددا من الصور التي تدل على بخل متأصل ، من مثل طلبه من عياله ان لا يلقون نوى التمر والرطب ويتعودون على بلعه ، لانه يعقم الشحم في البطن ويدفىء الكليتين ، وان يأكلوا الباقلاء بقشوره ، وكان له رأي في البخل والتقتــير والانفاق • وقد أول لفظتي الدرهم والدينار بما يتناسب ومعتقداته ، وألف في البخل كتابا ، وله وصية لابنه سجلها الجاحظ يوصيه فيها بالابتعاد عن البطنة •

ويروي طرائف للعنبري(٣) الــذي يبخل بكوز مــاء لامه ، ولابي قطبة الذي كان يؤجل تنقية بالوعته الى يوم

---

(١) المصدر نفسه ص ٩٠
(٢) البخـــلاء ص ٩١ ـ ١٠٠
(٣) المصدر نفسه ص ١٠١ ـ ١٠٣

المطر الشديد ، ولفيلولة الذي كان يجري على امه في كل أضحى درهما ، وربما أدخل أضحى في أضحى • اما طرائف تمام(١) بن جعفر في البخل فهي طرائف مبررة غاية التبرير وكان يقبل على كل من اكل خبزه بكل علة ، ويطالبه بكل طائلة ، وربما استخرج عليه انه كان حلال الدم ، وكان يجد مبررا للبخل لكل من يحدثه عن موضوع جانبي • ويمكن ان تسلك طرائف كل من(٢) : علي الأعمى والغزال وابي يعقوب الدقنان وسليمان الكثري ومحفوظ النقاش وابي القماقم واحمد بن الخاركي ، البخيل المدعى وغيرهم في سلك احداث البخل الصغيرة ، ويبدو ان الجاحظ قد تخير هذه الطرائف والأحداث ليكمل بها صور البخل الموزعة والمتنوعة •

اما احاديثه الخاصة بالبخلاء فكثيرة • من ذلك حديث ابن حسان(٣)، وحديث صاحب الثريدة ، وحديث طاهر الاسير وغيرهم • وهي احاديث قصيرة كذلك تلتئم مع الاحاديث والطرف والنوادر التي تؤدي جميعها الى تناول قضية انسانية هي قضية البخل • اما الرسالتان المتبادلتان(٤) بين

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٤ ـ ١٠٧
(٢) البخلاء ص ١٠٨ ـ ١١٦
(٣) المصدر نفسه ١٧٨ ـ ١٨٥
(٤) المصدر نفسه ص ١٤١ ـ ١٧٧

ابي العاص بن عبدالوهاب الثقفي وابن التوأم فهما من الرسائل والوصايا التي قدمت للكتاب خدمة جليلة ، واكملت رسالته ، حيث تضمنتا موقفين متضادين التضاد كله ، فالاولى تنتصر للكرم وتدعو اليه . في حين تنتصر الثانية للبخل وتدعو اليه .

ويخصص الجاحظ للاصمعي(١) جانبا من كتابه وتكمن اهمية تناول اخبار الاصمعي في كتاب البخلاء وغيره من كتب الجاحظ في ان للاصمعي مكانة رفيعة عند دارسي الادب العربي ، واهل اللغة وجامعي الشعر ، فهو واحد من المع علماء العربية وادبائها ، ومن اشهرهم في الاسماع ، واكثرهم ذكرا في الكتب ، وجريا على الالسنة لعلمه وفضله وادبه ونوادره وظرفه وآثاره وكتبه . ومع ان الاصمعي كان بصري المولد والوفاة ، مخلصا لوطنه الصغير متعلقا به ، وانه خرج الى بغداد وجلس الى الخلفاء يطرفهم بالنوادر والغريب والطرائف ، ويسهر معهم ، الا ان الجاحظ يلحق بالرجل من النوادر ما يدل على انه كان بخيلا ، فقد كان يدعو الى الاقتصاد ، والى حسن التدبير ولكن على حساب الكرم . وكان يتعود من الاستقراض والاستفراض ، اي

---

(١) تتبع اخبار الاصمعي في البخلاء في الصفحات : ١٢٠ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ .

العطبة المرسومة ، ومن العارية والوديعة ، وما يمكن ان يلحق بالانسان الضرر والتبعية والاقتصادية •

ثم يفرد الجاحظ بابا لطعام العرب(١) ، والكيفية التي كانوا من خلالها يتغلبون على الجوع كما يلم بالآراء التي تتحدث عن القدر وما قيل فيه ، وانواع الطعام الممدوح ، وانواع الطعام المذموم ••• وهكذا •

وكما تحدث الجاحظ عن البخلاء الأفراد ، فقد تحدث عن الفئات التي اشتهرت ببخلها كأهل البصرة واهل مرو من الخراسانيين وبعض الامويين(٢) ولا سيما معاوية بن ابي سفيان(٣) ، وسليمان بن عبدالملك(٤) وهشام بن عبدالملك(٥) وغيرهم • كما اشار الى اهل الجزيرة(٦) ، واهل المازح والمديبر(٧) ، واهل الابلة ، وغيرهم • وبذلك يكون الجاحظ قد تحدث عن فئات البخلاء من افراد وفئات وشعوب ومدن، وقدم شهادات موثوقة بهذا الشأن ، واعتمد في ما قدمه على

(١) المصدر نفسه ص ١٩٥ ـ ٢٢٥
(٢) البخــــلاء ص ١٣٥ ـ ١٤٠
(٣) المصدر نفسه ص ٦١ ، ١٣٧ ـ ١٣٩
(٤) المصدر نفسه ص ١٣٦
(٥) المصدر نفسه ص ١٣٧
(٦) المصدر نفسه ص ١١٠
(٧) المصدر نفسه ص ١١٠

روايات علماء تحدثوا فيها عن بخلاء سبقوا عصر الجاحظ ، وعلى مشاهدات واحداث ووقائع للبخلاء ممن كانوا يعاصرونه .

منازل البخلاء :

لانظن ان الجاحظ قد اطلق على بخلائه النعوت والاوصاف جزافا وهو المعروف بدقة تعبيره وبراعة تشخيصه وقوة صوره . وكيف لايكون كذلك وهو يتحدث عن اناس كانوا في مجموعهم اصدقاء له او شيوخا . والذي يبدو لنا بوضوح انه ما دام يتحدث عن بخلاء معاصرين ، او انتقلوا الى الدار الآخرة وتركوا العقب ، فقد كان لابد ان يشعر بالحرج الشديد ازاء هذا الموقف ، اذ كيف يمكن ان يتحدث عن ظاهرة انسانية دون ان يشير الى اهلها ؟ او يتحدث عن وقائع دون صنّاعها ؟ او يتحدث عن قصص لها شخوص دون ان يعرض نفسه للمسؤوليات الادبية ؟ .

ازاء هذه الظاهرة ، كان عليه ان يكون دقيقا في اوصافه وتعبيراته ونعوته ، كما كان عليه ان يستأذن هؤلاء بالاشارة الى اسمائهم . ومن هنا نجد لهذا الموقف مايبرره عندما يقول (١) : وقد كتبنا لك احاديث كثيرة مضافة الى اربابها ، واحاديث كثيرة غير مضافة الى اربابها اما الخوف

---

(١) البخلاء ص ٦

منهم ، واما بالاكرام لهم ••• « ويقول في موضع آخر(١):
لان ههنا احاديث كثيرة متى اطلعنا منها حرفا عرف اصحابها، وان لم نسمهم ، ولم نرد ذلك بهم • وسواء سميناهم او ذكرنا ما يدل على اسمائهم منهم الصديق والولي والمستور والمتجمل •••» وغني عن البيان ما في هذه الملاحظة التي وردت في مقدمة الكتاب ونعتبرها اساسا قويا في المنهج ، من ذكاء وفطنة لما يمكن ان يترتب على ايراد الاسماء من مسؤواية جزائية قد تقع عليه دونما موافقة او رضى من اصحاب الحق • وحتى يكون الجاحظ صادقا مع نفسه دقيقا في تعبيراته فقد توجب عليه ان يقيد كلامه ، ويزن اوصافه ويحدد معانيه ، ولا يشير الى الناس الا بما فيهم ، او بما هم عليه •وحتى يكون على الجانب الذي يريح ضميره ويحقق رسالته ، فقد قام بتقديم الأوصاف التي شاهدها في بخلائه، او لمسها فيهم بصدق واضح ودقة في التصوير • وسنلاحظ كيف ينوع الجاحظ في اوصافه ، وفقا لمعايير وضعها لنفسه لتكون له حافظا من المكروه والزلل • فهو يقول(٢) : وحدثني عمرو بن نهيوي قال : تغديت يوما عند الكندي ، فدخل عليه رجل كان له جارا وكان لي صديقا ، فلم يعرض عليه الطعام ونحن نأكل ، وكان أبخل من خلق الله ، واول ما يمكن ملاحظته

---

(١) المصدر نفسه

(٢) البخلاء ص ١٣

هنا ان الحديث منسوب الى احد الرواة ، تاركا العهدة عليه مبتعدا بذلك عن تحمل المسؤولية .

ويقول في موضع آخر(١) : ومن طياب البخلاء احمد ابن خلف اليزيدي ... « ويقول كذلك(٢) : وهذا خالد بن يزيد مولى المهالبة ـ هو خالويه المكدي ـ وكان قد بلغ في البخل والتكدية وفي كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها احد .. » . ومن الملاحظ ان هذه الصفات ليست بالصفات المألوفة ، فهو بخيل ومكدي وكانز للمال ، في حين نراه يصف ابا محمد الحزامي عبدالله بن كاسب ، كاتب مويس، وكاتب داود بن ابي داود بانه(٣) : كان ابخل من برأ الله ، واطيب من برأ الله . وكان له في البخل كلام . وهو احد من ينصره ويفضله ويحتج له ويدعو اليه ...» وبذلك يقيم الجاحظ موازنة طريفة تمكن من خلالها من الجمع بين البخل وسماحة الخلق وهي طريقة فريدة قلما نجد لها مثيلا . ويصف ابا عبدالرحمن الثوري ، والكلام منسوب الى الخليل السلولي بقوله(٤) : « وابو عبدالرحمن هذا شديد البخل ، شديد العارضة ، عضب اللسان . وكان يحتج

(١) المصدر نفسه ص ٣٤
(٢) المصدر نفسه ص ٣٩
(٣) المصدر نفسه ص ٥٢
(٥) المصدر نفسه ص ٩٣ ـ ٩٤

للبخل ويوصي به ويدعو اليه • وما علمت ان احدا جرد في ذلك كتابا الاسهل بن هارون وهو » • وما من شك في ان اوصافه لابي عبدالرحمن الثوري كانت قوية ومؤثرة • فهي تجمع الى جانب البخل الشديد القدرة على الكلام والبديهة الحاضرة وحدة اللسان ، الى جانب دعوته للبخل واحتجاجه له والدعوة اليه والتاليف فيه •

وينقل عن امرأة تعرف الامور قولها(١) : «•••وذكرت كل واحدة منهن ما يوليها ابنها • فقالت واحدة منهن ، وام فيلولة ساكتة ، وكانت امرأة صالحة ، وابنها يظهر النسك ويدين بالبخل • وهكذا تظهره وكأن البخل اصبح دينا آخر له • ويصف تمام بن جعفر بانه(٢) : « كان بخيلا على الطعام، مفرط البخل ••• » كما يصف الغزال(٣) بانه اعجوبـة في البخل » • وينقل عن اصحابه عن عبدالله بن المقفع قوله(٤): « كان ابن جذام الشبي يجلس الي ، وكان ربما انصرف معي الى المنزل ، فيتغدى معنا ويقيم الى ان يبرد • وكنت اعرفه بشدة البخل وكثرة المال » • ويصف بخيلا آخر بانه(٥) :

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٢
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٤
(٣) المصدر نفسه ص ١٠٨
(٤) المصدر نفسه ص ١٠٩
(٥) المصدر نفسه ص ١١٠

« كان قد جاوز في ذلك حد البخلاء » وآ قد(١) « بلغ في البخل غايته وصار اماما » • وبخيل ثالث(٢) « كان اخوه شريكه في كل شيء ، وكان في البخل مثله » •

ويخص الجاحظ ابا سعيد المدائني بأوصاف قلما نجد له نظيرا فقد كان (٣) : «اماما في البخل عندنا بالبصرة وكان من كبار المعنيين ومياسيرهم • وكـان شديد العقل ، شديد العارضة ، حاضر الحجة ، بعيد الروية » • ويصف عبدالملك ابن قيس انه من اشراف البصـرة وانه(٤) « كان بخيلا على الطعام جـوادا بالدراهم ••• » وينقـل عن ابـن حسان قوله(٥) : كان عندنا رجل مقل وكان له اخ مكثر ، وكان مفرط البخل ، شديد النفج ••• « كما يسجل على الروم(٦) بانهم ابخل الامم لانك لا تجد للجود في لغتهم اسما •••» اما قاسم التمار فان الجاحظ يصفه بانـه « شديد الاكل ، شديد الخبط ـ قـذر المؤاكلة ، وكـان اسخى الناس على طعام غيره ، وابخل الناس على طعام نفسه » •

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٩
(٢) المصدر نفسه ص ١٢١
(٣) البخـــلاء ص ١٢٤
(٤) المصدر نفسه ص ١٣٦
(٥) المصدر نفسه ص ١٧٨
(٦) المصدر نفسه ص ١٨١

ولعل في ما اوردت ان يكــون امثلة لمنــازل البخلاء ودرجاتهم عند الجاحظ ، ذلك ان من يتعمــق ما ذهب اليه لابد ان يلاحظ الفــرق بين البخلاء الافــراد وبخلاء المدن والشعوب البخيلة • والــواقع ان الجــاحظ عندما يقــدم ملاحظــاته عــن بعض الشعوب لايعنيهم جميعــا ، فليس البصريون جميعهم بخلاء ، كما ان الخراسانيين ليسوا جميعا بخلاء او المروزيين ، وانما يختار من بينهم حالات نادرة في البخل يقدمها امثلة واضحة ، بيــد ان الجاحظ ربما وجد بعض الامثلة الصارخة في مدن يعنيها مثل مدينة الابلــة او مدينة مرو او مدينة البصرة او غيرها من المدن • ولكن علينا ان نتفهم بعض الحالات الخاصة لهذه المدن ، فقد يكون ثمة ما يبرر البخل في بعض الامور الحياتية ، من مثل شح المياه الصالحة للحياة البشرية بالبصرة ، حيث يبدو الحرص عليها واجبا وامرا حيويا • ولكننا لانفهم كيف يمكن ان يكون الروم ابخل الامم ، وان الامويين كانــوا بخلاء لان بعض الاعراب كانوا يتناولون الطعــام من بين ايديهــم ، او ان هشام بن عبد الملك عندما رأى اصحابه يأكلون الفاكهة من بستانه امر غلامه بقطع شجر الفاكهة ليغرس مكانها الزيتون• على ان الجاحظ لم يسر في اوصافه للبخلاء على وتيرة واحدة، فعلاوة على انه اعطى كل بخيل ما يستحق من اوصاف ، الا انه كــان يقسو على بخــلائه ولا سيما اذا كانــوا من غير

المعاصرين ، او من شعوب او فئات غير عربية ، وكذلك الذين هم من خارج البيئة البصرية ، فالكندي(١) كان أبخل من خلق الله . والكندي هذا فيما يبدو خراساني لان الجاحظ وضعه في زمرة الخراسانيين البخلاء . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، فانه يعزو الحديث لعمرو بن نهيوي لتكون العهدة عليه . اما خالد بن يزيد الذي بلغ في البخل والتكدية وفي كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها احد ، فهو مكد وزعيم طائفة المكدين ، لذلك لانستغرب ان يصفه الجاحظ بهذه الاوصاف ، ويحمل الجاحظ على ابي عبدالرحمن الثوري ويكيل له الاوصاف الشائنة ، فهو شديد البخل شديد العارضة ، عضب اللسان . وكان يحتج للبخل ويدعو له . ويظهر ان الثوري ، الذي كان سريا من سراة البصرة ثم غادرها الى بغداد حيث نزل عند مسجد ابن رغبان ، كان ذا بخل موصوف ، واعمال موصوفة شائعة بهذا الشأن ، وربما اعتمد الجاحظ في اوصافه له على امور واقعية مثلما كان هو الحال عند كثير ممن عاصروا الثوري وعرفوا الرجل عن قرب . ويدخل في هذا النطاق قاسم التمار حيث يكيل الجاحظ له الاوصاف ، فهو شديد الاكل ، وشديد الحبط ، قذر المؤاكلة ، وربما انتفخ بطنه من كثرة الأكل .

(١) البخلاء ص ١٣

بيد ان قاسم التمار هذا يسلكه الجاحظ في البخلاء الذين يحاول ان يضع لهم الموازنه فهو(١) الى جانب ما ذكرنا « اسخى الناس على طعام غيره وابخل الناس على طعام نفسه ويظهر الجاحظ احد البخلاء في صورة من(٢) يظهر النسك ويدين بالبخل » • اما عبد الملك بن قيس المدائني فقد كان(٣) « بخيلا على الطعام جوادا بالدرهم » مما يدل على ان الجاحظ كان صادقا في اوصافه ، وكان يجيء بالاوصاف على قدر المعاني •

ولكننا ما نلبث ان نقف مشدوهين امام ظاهرة فريدة جديرة بالملاحظة ، وهي قدرة الجاحظ على ان يجمع في بعض بخلائه صفتين متخالفتين ومتضادتين ، فابو محمد الحزامي(٤) كان ابخل من برأ الله واطيب من برأ الله ، واحمد بن خلف اليزيدي(٥) من طياب البخلاء ، وابو عبدالله المروزي(٦) من اطيب ما خلق الله واملحهم بخلا واشدهم رياء ، وما من شك في ان هذا الموقف يدل على شدة عناية الجاحظ باختيار اوصافه ، ورسم الصورة

---

(١) البخلاء ص ١٨١
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٢ ـ ١٠٣
(٣) المصدر نفسه ص ١٣٦
(٤) المصدر نفسه ص ٥٢
(٥) المصدر نفسه ص ٣٤
(٦) البخلاء ص ١٧

الواقعية الصحيحة والدقيقة والواضحة لبخلائه على اختلاف مراتبهم ومواقعهم ، بصرف النظر عما يحسه هو نفسه من مواقف معلنة تجاه البخل والبخلاء .

ولكن الجاحظ لايقف عند اوصاف البخل في رجاله ، او صنع الموازنة لهم ، وانما يطلق عليهم اوصافا اخرى غير البخل . وهذه الاوصاف قد تكون في جوها العام قريبة من الموضوع المباشر وقد لاتكون . فخالد بن يزيد(١) بخيل وشحاذ ، وابو عبدالرحمن الثوري(٢) شديد العارضة ولسانه سليط ، وابو سعيد المدائني(٣) مراب ، وشديد العارضة وحاضر الحجة بعيد الروية ، وابو عبدالله المروزي اشد الناس رياء ، وهكذا .. ومن المعروف ان الجاحظ(٤) وضع امام عينيه قاعدة بهذا الصدد ، فهو لم يرد ان يسمي المتهتكين فضلا عن المستورين ، كما لم يرد ان يسمي الصاحب لحرمته وواجب حقه ولا يسمي الاخر لستر الله عليه . ومع ذلك فانه كان يسمي الصاحب اذا كان مما يمازح بهذا كثيرا ورآه يتظرف به ،

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٩
(٢) المصدر نفسه ص ٩٣ ـ ٩٤
(٣) المصدر نفسه ص ١٢٤
(٤) المصدر نفسه ص ٥٠

ويجعل ذلك الظــرف سلما الى منــع شينه • وعليه ، فان الجاحظ لايسمي مــن البخلاء من خــرج من نطاق هاتــين الحالتين •

العيابـــون :

ظهرت الى جانب بيئة البخلاء بيئة واضحة الملامح كان اساسها العيابة وتسمى اتباعها بالعيابين ، وهم اولئك الذين يتناولون العيوب والنواقص والمآخذ وينشرونها منسوبة الى اصحابها • وربما زادوا المشكلة تعقيدا وهم ينشرون العيوب ويذيعونها بما يزيدون عليها مما يرونه مناسبا • ومن الواضح ان رسالة سهل بن هارون خير ما يمثل هذا الاتجاه ، فهو يبدأ بذكر صفات العيوب والعيابين، ويقول(١): اذا اردت ان ترى العيوب جمة فتامل عيابا • فانه انما يعيب بفضل مافيه من العيب • وهذا يعني ان المجتمع قد شهد وجود طائفة من الناس كان همهم الاول ان يعيبوا ما في الناس ، وان يتتبعوا هفواتهم ربما خوفا من قيــام الناس هــؤلاء بتتبع هفوات اصحابها وسقطاتهم ، لذلك نرى ان العياب انما يعيب امــا بفضل مافيه واما دفاعا عن نفسه • ويرى سهل بن هارون(٢) ان « اول العيب ان تعيب ما ليس بعيب » وهذا يعني وجود

---

(١) البخــلاء ص ٧
(٢) المصدر نفسه

هذه الفئة التي احترفت الاجتراح على الناس وادارة عيوبهم وتكبيرها وتعظيمها والانتقاص منهم بامور لايعترف المجتمع بانها عيب • والمجتمع لايرى ان ذكر العيوب ، حتى لو كانت قائمة • ويعتبر برا وفضلا وانما العيب ان كان قد حصل يمكن ان يكون اجتهادا اصدر عن حسن نية ومن الواضح ان العيب الذي اخذ عن سهل بن هارون كان سببه ما اشاعه في احاديثه وكتاباته من انتصار لضرورة الاقتصاد في النفقات وادارة الامـوال ادارة حكيمة • وهذا يعني ان كان مجال حسد في القدرة على التدبير ونماء الامـوال ودوام النعمة ، فالتمس العيابـون الاسـباب الواهيـة لابطال المـواقف الاقتصادية التي تبناها سهل بن هارون على شكل رسالة • دعا فيهـا الى مذهبه هـذا ، ودعمـه بالحجج والنصوص واستشهد بالاقوال التي صدرت عن كبار الرجـال الخبراء والعلماء المجربين •

ويعدد سهل بن هارون مجالات العيوب من مثل(١) : عتبتموني بقولي لخادمي : اجيدي عجينه خميرا كما اجدته فطيرا ، ليكون اطيب لطعمه وازيد لريعه ـ وقد قال عمـر ابن الخطاب رضي الله عنه ورحمه لاهله : املكوا العجـين فانه اريع الطحينين « • وعبتم علي بقولي : من لم يتعرف

---

(١) البخـلاء ص ٨

مواقع السرف في الموجود الرخيص لم يعرف مواقع الاقتصاد في الممتنع الغالي » • وعبتموني حـين قلت للغلام(١) : اذا زدت في المرق فزد في الانضاج ، لتجمع بين التأدم باللحـم والمرق ولتجمع مع الارتفاق بالمرق الطيب • وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : اذا طبختم لحما فزيدوا في الماء ، فان لم يصب احدكم لحما اصاب مرقا • وعبتموني حين قلت(٢): لايغترن احد بطول عمره وتقوس ظهره ورقة عظمه ، ووهن قوته ان يرى اكرومته ، ولا يخرجه ذلك الى اخراج ما له من يديه وتحويله الى ملك غـيره ، والى تحكيم السـرف فيه وتسليط الشهوات عليـه ، فلعله ان يكون معمرا لايدري ، وممدودا له في السن وهو لايشعر ••• « وعبتموني(٣) حين زعمت ان التبذير الى مال القمـار ومال الميراث والى مـال الالتقاط وحباء الملوك اسرع ••• وعبتموني(٤) حين زعمت اني اقدم المال على العلم ، لان المال به يغاث العالم ، وبـه تقوم النفوس ، قبل ان تعـرف فضيلة العلم ••• وهكذا • والواقع اننا لاندري كيف تناهى الى سمع سهيل بن هارون هذه العيوب ، او الطريقة التي عرف من خلالها ان قوما لم

---

(١) المصدر نفسه ص ٩

(٢) المصدر نفسه ١٠

(٣) المصدر نفسه

(٤) المصدر نفسه ص ١١

تعرف اسماؤهم يعيبون عليه بعض المواقف التي عزوها بطبيعة الحال الى البخل والتقتير ، وبالتالي رد على ما عابوه به برسالة عدد فيها مجالات العيوب . وكل ما يقدمه لنا كتاب الجاحظ ان هناك عددا من العيابين وجدوا في مجتمع البصرة بخاصة والمجتمع العراقي بعامة .

ويسمي الجاحظ عددا من العيابين ، في حين يخفي اسماء بعضهم الآخر ، كأن يقول(١) : « لقد رأيت رجلا ضخما فخم اللفظ - فخم المعاني ، تربية في ظل ملك ، مع علم جم اللسان عضب ، ومعرفة بالغامض من العيوب ، والدقيق من المحاسن مع شدة تسرع الى اعراض الناس ، وضيق صدر بما يعرف من عيوبهم ... » . ومن الواضح ان الجاحظ يشترط في العياب ان يكون فخم اللفاظ ، فخم المعاني ، ذا لسان عضب ومعرفة بالعيوب واضحها وغامضها ، قادرا على ثلب اعراض الناس مع شدة تسرع الى خصوصياتهم ، وضيق صدر بما يعرف من عيوبهم لايستر شيئا مما يبيحه العرف او لا يبيحه .

ومن الاسماء المعروفة في مجال العيابة ، مما نقله ابو الفاتك(٢) ، قاضي الفتيات ، الجارود ابن ابي سبرة ، وابو

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٠

(٢) المصدر نفسه ص ٥٩

الحارث ممبين ، فقد كانا يدعيان الى الطعام والى الاكــرام لظرفهما وحلاوتهما وحسن حديثهما وقصر يومهما • وكانا ينشهيان الغرائب ويقترحان الطرائف •• ومنهم(١) بلال بن ابي بردة الذي كان رجلا عيابا ، وكان الى اعراض الاشراف متسرعا • وابو شعيب القلال(٢) الذي لم يحفظ ود مويس فعابه بالاكل وقال به : لم ير قط اشح منه على الطعام ، وكان ابو الشمقمق (٣) عيابا • ومن العيابين الجماز(٤) الذي عاب طعام من احسن اليه وقــال فيه : قــيء كلب في قحف خنزير • ووصف رجل من العرب خزاعة بقوله : جوع واحاديث • ومما يروى عن عمرو بن معدي كرب(٥) الذي نزل برجل من بني المغيرة ــ وهم اكثر قريش طعاما ــ فأتاه بما حضر ، انه عندما سئل عن قراهم قال : ما قروني غير قوس وكعب وثور• ومن العيابين ابو الحارث جمين الذي وصف وجه محمد بن يحيى على غذائه بقوله(٦) : اما عيناه فعينا مجنون • ولو كان في كفه كر خردل ثم لعب به لعب الابي بالاكرة لما سقطت من بين اصابعه حبة واحدة » • واتهم الجارود بن ابي سبرة

(١) المصدر نفسه ص ٦٢
(٢) المصدر نفسه ص ٦٣
(٣) المصدر نفسه ص ٦٤
(٤) المصدر نفسه
(٥) المصدر نفسه ص ٦٣
(٦) المصدر نفسه

عبدالاعلى(١) بانه كان يمني المدعوين ليقتصروا في الأكل ، حتى اذا اتى بالذي يتشهى بلغ منه حاجته ... وهكذا .

ولعل تمام بن جعفر من اشهر العيابين الذين يقدمون العلل والتبرير ، ويعيبون من يفرطون في الطعام ثم يشكون العلل والامراض وقسوة النتائج . فان شكا احدهم عدم القدرة على المشي قال له(٢) : وكيف تمشي ، وقد جعلت في بطنك ما يحمله عشرون حمالا وهل ينطلق الناس الا من خفة الاكل ؟ واي بطن يقدر على الحركة ، وان الكظيظ ليعجز عن الركوع والسجود ، فكيف بالمشي الكثير ؟ فان شكا ضرسه ، وقال : ما نمت البارحة مع وجعه وضرباته : قال عجبت كيف اشتكيت واحدا ، وكيف لم تشتك الجميع ؟ فان قال : ما انام الليل كله . وقد اهلكني الارق قال : وتدعك الكظة والنفخة والقرقرة ان تنام ؟ والله لو لم يكن الا العطش الذي ينبه الناس لما نمت . ومن شرب كثيرا بال كثيرا . وغير ذلك .

ومن الواضح ان تمام يمثل نوعا فريدا من العيابين ، فهو وان اعتمد في شرح الحالة على خليفة البخل ، فانه يقدم العلاج وكأنه طبيب عارف بتشريح الجسم الانساني ، ويصف

---

(١) البخلاء ص ١٦٣

(٢) المصدر السابق ص ١٠٤ ـ ١٠٥

الحالة المرضية وكأنه خبير بالادواء ، كما يصف العلاج على قاعدة من العلم والمعرفة •

مما يتقدم يتضح لنا ان العيابين قد صبوا جل اهتمامهم وقدموا معظم ملاحظتهم حول الطعام ، فمنهم من كان يدعى للموائـــد لاضفـــاء جو من الفكاهة والضحك على موائـــد الموسرين ، متناولين اخلاق الناس ، ومتندرين حول بخـــل بعضهم ، واحـــداث هـــذا البخل ، مصورين الاحداث كما وقعت او كما يحلو لهم ان يصوروها دفعا لما يفرضه الجـــو العام • ويكفي ان نستشهد بكلام ابي فاتك(١) الذي كان لديه معجم من الفاظ العيابـــة يستخدمه وقتما شاء • وهـــو يعتقد بـــان الفتى لايكون نشالا ولا نشافا ولا مرسالا ولا لكاما ولا مصاصا ولا نفاضا • فكيف لو رأى ابـــو الفاتك اللطاع والقطاع والنهاش والمداد والدفاع والمحول •• وما من شك في ان هذه الالفاظ وامثالها تدل على قدرة لايستهان بها في تصـــوير الأكلة ومـــا يمكن ان يعابوا به • بـــل ان الحارثي(٢) يرى ان في الانسان ، ايا كان ، مايمكن ان يعيبه عند الأكل ويقول : واني لم آكل مع احد قط الا رأيت منه بعض ما ذمـــه ، وبعض ما شنعه وقبحه • وهـــذا يعني ان الانسان معرض من هذه الناحية للمؤاخذة والمراقبة ، وتتبع

---

(١) البخـــلاء ص ٥٩

(٢) المصدر نفسه

الهفوات والسقطات فكيف اذا قصد ترصده ؟ وكيف اذا ظهرت عيوبه واتضحت للناس مساوئه ؟ والتندر بها واضافة مايمكن ان يضاف عليها .

ولقد طولب الحارثي(١) بان يشهد طعامه العدو ليغمه والولي ليسره والجاهل ليعرفه والزائر ليعظمه والشاكر ليمنحه . ذلك ان الطعام عندما يتنحى من بين يديه ، ويغيب عن عينيه ، يصير نهبا مقسما ومتوزعا مستهلكا . ومن هنا نصح الرجل بان يحضره من ينفع شكره ويبقى على الايام ذكره . ولكنه يرد هذا الطلب بقوله(٢) : كيف اؤاكل اقواما يصنعون هذا الصنيع ؟ ويقول : « انكم تشيرون علي بملابسة شرار الخلق وانذال الناس ، وبكل عياب متعتب ، ووثاب على اعراض الناس متسرع . وهؤلاء لم يرضوا ان يدعوهم الناس ولا يدعوا الناس ، وان يأكلوا ولا يطعموا وان يتحدثوا عن غيرهم ولا يبالون ان يتحدث عنهم ، وهم شرار الناس » .

والواقع ان موقف الحارثي موقف صريح للغاية ، فهو لايريد ان يبقى على حالة من الكرم ، في حين لا يريد اطعام الاكلة من اجل ان يشهدوا عليه وينشروا الفضيلة في الآفاق.

---

(١) المصدر نفسه
(٢) البخلاء ص ٦١

ويقول في ذلك(١) : والله اني لو لم اترك مؤاكلة الناس واطعامهم الا لسوء رعة علي الاسواري لتركته • ثم يبدأ في شرح حالة علي الاسواري هذا بكلام يشبه المؤاخذة والعيابة • ويقول(٢) « ولم يفصل ثمرة قط عن ثمرة ، ولا رمى بنواة قط ، ولا نزع قمعا ، ولا نفى عنه قشرا ولا فتشه مخافة السوس والدود • ثم ما رأيته قط الا وكأنه طالب ثأر ، وشحشحان صاحب طائلة ، وكأنه عاشق مغتلم او جائع مغرور » •

ومن الواضح ان مذهب الحارثي يتمثل في ان المال انما هو مجعول للبذل والاطعام ، فاذا انصرف المال الى غير غايته اصبح من اجل التزيين والبهرجة والاعلان عن الكرم والتفاخر بالبذل وبذلك ينحرف الانسان عن المبدأ الذي وجد من اجل تحقيقه •

والواقع اننا لو تتبعنا ما جاء في كتاب البخلاء نفسه لظهر لنا بوضوح ان الكتاب مبني اساسا على العيابة والعيابين • فالبخلاء مرضى بالعيب ، ومن كتب عنهم انما اراد ان يرصد عيوبهم ، وربما اتهم بتصيد العيب وتمجيده• فاذا كان ذلك كذلك ، فقد يكون الجاحظ نفسه الذي كتب

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٩

(٢) المصدر نفسه

في ظاهرة البخل والبخلاء من اكبر العيابين في عصره ، ذلك ان رصد العيب وتتبع العيوب وسجل للعيابين ملاحظاتهم ولم يقصر هذه الظاهرة على البخلاء وانما اراد ان تطال الكرماء كذلك .

المكـــدون :

فئـة او طائفـة مـن الناس احترفـت سؤال الناس والاستجداء في الظاهر ولكنها اتجهت الى الاحتيال في سبيل جمع المال ، متخذة لذلك صنوف الاساليب غير المشـروعة من مثل استخدام القوة واتخاذ العنف الى ذلك سبيلا ، فضلا عن الاعتماد على سذاجة الجماهـير وغفلتهم لتحقيق المآرب الشخصية والغايات الذاتية .

ويظهر خالد بن يزيد مولى المهالبـة ، وهـو يعرف بخالويه المكدي ، زعيما من زعماء المكديـن في البصـرة . ولعله من اكثر شخصيات الجاحظ اثارة ، لما يبثه في الكتاب من آراء جريئة ، ولما يحمله من فكر واضح ، ولما يصوره من واقع كان المجتمع البصري يعيشه . وبعد ان يصوره الجاحظ بخيلا(١) ، ويذهب الى انه قد بلغ في البخل مبلغـا لم يبلغه احد ، يرى انه قد بلغ في التكدية وفي كثرة المال ، كذلك

(١) البخــلاء ص ٣٩

المبالغ التي لم يبلغها احد • وربما عرفه بنو تميم اول ماعرفوه من خلال سائل يستجدي ، وهو في مجلس من مجالسهم • عندما ادخل يده في الكيس ليخرج فلسا ، وفلوس البصرة كبار ، فغلط بدرهم بغلي ، فلم يفطن حتى وضعه في يد السائل المستجدي فلما فطن استرده واعطاه الفلس •

وكان خالد بن يزيد مكديا ، بل كان زعيم المكدين • ودليلنا على ذلك هو انه عندما سئل ان كان يعرف المكدين قال : « كيف لاأعرفهم وانا كنت كاجارا في حداثة سني » • ويبدو انه جمع تحت تصرفه فئات كبيرة من الناس ، وتزعمهم، وكان منهم : المخطراني الذي يختفي في زي ناسك ، ويخفي ملامحه ولا سيما لسانه ، مستعيضا عن ذلك بشخص يصف حالته ، او لوح او قرطاس قد كتب فيه شأنه او قصته ، والبانوان الذي يتوسل الناس ويطلب منهم الصدقة قائلاً : بانو(١) والكاغاني الذي يتجبن ويتصارع ويزبد مفتعلاً الجنون ، شاكيا من شدة ماينزل بنفسه ، والقرسي الذي يعصب ساقه وذراعه ليظهر للناس ان به أكلة او بلية ، والمشعب الذي يحتال للصبي حين يولد بان يعميه او يجعله اعسم او اعضد ، ليكرياه ابواه بكراء معلوم ، والفلور الذي يحتال ان به عاهة ، والكاغان وهو الغلام المكد اذا واجر ،

(١) البخلاء انظر ص ٣٩ وتفسير المصطلحات ص ٤٤ ـ ٤٦

اي اصبح عليلا والعواء الذي يسأل بين المغرب والعشاء وربما طرب ان كان له صوت حسن ، والاسطيل ـ اي المتعامي ـ ، الذي ان شاء اظهر انخسافاً في العينين ، وان شاء اظهر بهما ماء وان شاء اظهر أنه لايبصر ، والزيدي الذي يدور ومعه دريهمات ويقول : هذه دراهم جمعت لي في ثمن قطيفة ، فزيدوني فيها رحمكم الله .

والمستعرض الذي يعارض الناس وهو ذو هيئة وفي ثياب صالحة ، وكأنه قد مات من الحياء ، ويخاف ان يراه معرفة ، ثم يعترض الناس اعتراضا ويكلمهم خفية . والمقدس الذي يقف على الميت يسأل في كفنه ، ويقف في طريق مكة على الحمار الميت والبعير الميت فيدعي انه كان له . وقد تعلم الخراسانية واليمانية والافريقية ، وتعرف تلك المدن والسكك والرجال ، وهو متى شاء كان افريقيا ، ومتى شاء كان من اهل فرغانة ومتى شاء كان من اي مخاليف اليمن شاء .

ومن الواضح ان الجاحظ يعدد انواع المكدين ، فحتى تكتمل الصورة العامة للكدية ، فقد كان عليه ان يصف ما كان يشاهده في اسواق البصرة من انواع المكدين والمستجدين الذين برعوا في تغيير سحناتهم تمهيدا للقيام بالدور المطلوب ، في محاولة منهم لاستدرار عطف الجماهير

واثارة شفقتهم ، محاولـين اقناع الناس بـان ما هـم فيه لايساعدهم على العمل • ومن هنا نرانا على ثقة بان التكدية اصبحت فنا له اصـوله وقـواعده وطـرقه ، وان المكدين اصبحوا طائفة لها خطرها الشديد على المجتمـع • ازاء هذا كله كان على هذه الطائفة ان تقيم فيما بعد بينها نقابة ، وان تبحث عمن يتزعمها ، فكان ماكان من امر خالد بن يزيد الذي لعب دور القائد لهذه الفئة ، بل ربما تحكم في شكل العاهة التي ربما اقترحها على بعض الذين انضموا تحت لـواء هذه الفئة او الجماعة او النقابة •

ويظهر من حديث خالد بن يزيـد او بعبارة اخـرى وصيته ، انه قد نشأ نشأة فقيرة ، ثم سلك سبيل التكدية ، فأكل الزكوري ــ اي خبز الصدق ــ ثلاثين سنة • ولم يبق سائل او مستجد من اتباعه او غير اتباعه الا وقد تتلمذ على يديه ، ومن دبر أمره وقام بسياسته ، حتى خضع له الاشقياء، وقطاع الطرق ، والمشعوذين ، وكان من تلاميذه ابو سليمان الاعور ، كما كان ابو سعيد المدائني من غلمانه •

ويسجل الجاحظ وصية خالد بن يزيد لابنـه • وهي وصية قلما نجد لها نظـيرا في الادب العـربي بعامة والنثر الادبي بخاصة ، ففيها المبادىء التي تقوم عليها مهنة الكدية، واصـول التدبـير ، واساس عيش المقتصدين • كما يضع

خبرته الطويلة امام ناظري ابنـه حيث يصف له معاناته في سبيل الحصول على المـال وعلى لقمـة العيش • ومن اجل تحقيق هذين الغرضين ، فقد كان عليه ان يتوافر على خبرة قلما تجتمع لغيره • وبهذا الصدد يقول(١) : « ان هذا المال اجمعه من القصص والتكدية ، ومن احتيال النهار ومكابدة الليل ، ولا يجمع مثله ابدا الا من معاناة ركوب البـحر ، او من عمل سلطان ، او من كيمياء الذهب والفضة ، ولولا علمـي بضيق صدرك ، ولولا ان اكـون سببا لتلف نفسك لعلمتك الساعة الشيء الذي بلـغ به قـارون ، وبه تبنكت خاتون • والله ما يتسع صدرك عندي لسر صديق ، فكيف ما لايحتمله عزم ، ولا يتسع له صدر ، وخزن سر الحديث وحبس كنوز الجواهر اهون من خزن العلم » •

ومن الواضح ان القصص والتكدية لم تكن السبيل الوحيد لجمع المال ، وانما كان ثمة سبل اخرى لتحقيق هذه الغاية • فقد عرف اساليب تحويل المواد الهشة الى مـواد نافعة ، يمكن ان تجلب له الربح واموال • كما عرف كيمياء الذهب والفضة • ولقد كانت لديه القدرة على جمع الاموال وكنزها الى القدر الذي تتساوى امواله باموال قارون ، بل كانت لديه القدرة على ان يتساوى عزه بما كانت عليه خاتون

---

(١) البخـــلاء ص ٤٠ ــ ٤١

ملكة بخارى من عز وسؤدد وشأن عظيم • ولم تقف تجربة الرجل عند هذا الحد ، ذلك ان في الوصية ما يدل على انه كان عارفا بتحضير الارواح ، بدليل ما جاء في عبارته التالية : « ولو كنت عندي مأمونا على نفسك لاجريت الارواح في الأجساد وانت تبصر » • ويبدو ان خالد بن يزيد هذا كان يمكن ان يعلم ابنه هذه المعرفة ، ولكنه آثر — ان أقامة الله من علته — ان يعلمه علم الادراك والطريقة التي يسبك بها الرخام ، وتصنع الفسيفساء ، فضلا عن اسرار السيوف القلعية ، وعقاقير السيوف اليمانية ، وعمل الفرعوني وما الى ذلك •

ويشدد على طرح تجربته في الحياة لتكون بين يدي الابن لعله يأخذ بما يمكن ان يأخذ به • وهذه التجربة تتلخص في ان الرجل اتصل بالسلاطين والمساكين ، وخدم الخلفاء والمكدين ، وخالط النساك والفتاك ، وعمر السجون كما عمر مساجد الذكر • ويقول(١) : « فلولا اني دخلت من كل باب ، وجريت مع كل ريح ، وعرفت السراء والضراء حتى مثلت لي التجارب عواقب الامور ، وقربتني من غوامض التدبير لما امكنني جمع ما اخلفه لك » • ولم تتوقف التجربة

---

(١) البخلاء ص ٤١

عند هذا الحد ، فهناك تجارب قد تكون اهم مما ذكر ، وهي تتمثل في الكيفية التي يمكن من خلالها ان يحافظ على المكاسب . لذلك نراه يضع بين يدي ابنه ، التجارب المالية والاقتصادية التي خبرها احسن خبرة .

ومما يلفت النظر في هذه الوصية ، ان الاب يوصي الابن بالحذر من القضاة . ذلك ان(١) « الله جل ذكره لم يسلط القضاة على اموال الاولاد الا عقوبة للاولاد » . وبعد ان يقدم له النصح والارشاد ويوجهه الوجهة السليمة ، ويحذره من مغبة الوقوع بين القضاة ، يطلب من ان يحذر من الوقوع ضحية القضاة ، ذلك ان الانسان ان ملك ماله فقد ملك نفسه وملك حياته ، وملك ثقة الاخرين وحبهم . وفي هذه الحالة يصبح القضاة انفسهم ملكا لمن يملك المال . ويقول بهذا الخصوص « فان سلكت سبيلي صار مال غيرك وديعة عندك ، وصرت الحافظ على غيرك ، وان خالفت سبيلي صار مالك وديعة عند غيرك وصار غيرك الحافظ عليك » .

وتتضمن الوصية صورة فريدة من صور البخل قلما نجد لها نظيرا . فحتى يبرر بخله نراه يعتمد على قدسية اسم

---

(١) المصدر نفسه ص ٤١ وما بعدها .

الله التي تتصدر كل درهم حين يقول(١) : فأول ما اوقع في روعي ان مالي محفوظ علي ، وان النماء لازم لي ، وان الله سيحفظ تعبـــي من بعـــدي ، اني لما غلبتني يوما شهوتي ، واخرجت درهما لقضاء وطري ، وقعت عيناي على سكته ، وعلى اسم الله المكتوب عليه ...» وهذا يعني انه اعتمد في تأييده للبخل على احكام وآراء لن تكون موضوع مناقشة او استفسار او طعن من طرف احد ، ولا سيما اولئك الذين ينتصرون للكرم ويدافعون عن اصوله واسسه واهدافه . لذلك اخذ على عاتقه ان لايخرج من بين يديه او من بيتـــه شيئا مكتوب عليه(٢) « لا اله الا الله » وان كان لابد ان يخرج شيئا لقضاء حاجة ما فعليه ان يخرج شيئا ليس عليه شيء . وما من شك في هذا الموقف غريب للغاية وبه تفوق خالد بن يزيد على البـــخلاء وتصدر قائمتهم في هذا المجال ، تماما مثلما تصدر قائمة المكدين والمحتالين والأفاقين وقطاع الطرق وما اشبه .

ولقد افترضت الوصية ضياع المال او ذهابه من بين يدي مالكه ، وهنا نرى خالد بن يزيد يعلم ابنه كيف يتصرف لو ذهب المال . وهنا نرى الرجل يضع خبرته الطويلة وتجاربه

---

(١) البخـــلاء ص ٤٣

(٢) المصدر نفسه

بين يدي ابنه موجها اياه ومرشدا ، ومبينا له كيف يمكن ان يتصـــرف لو ذهب المال ، ويقول بهـــذا الشأن(١) لو ذهب مالي لجلست قاصا ، او طفت في الآفـــاق ـــ كمـــا كنت ـــ مكديا . اللحية وافرة بيضاء ، والحلق جهير طل ، والسمت حسن ، والقبول علي واقع . وان سألت عيني الدمع اجابت، والقليل من رحمة الناس خير من المال الكثير . صرت محتالا بالنهار ، واستعملت صناعة الليل ، او خرجت قاطع الطريق ، او صرت للقوم عينا ولهم مجهرا . وهذا يعني ان مهنة القص كانت تسد العوز وتربح المال بعد ان تحولت عن هدفها الاول وهو الارشاد الديني والتوجيه نحو غايات الاسلام وشرح ما يتوجب على المسلم عمله . كما كانت مهنة الاستجداء ، اذا توفرت لها الاسباب تدر للمكدي المال ، ولا سيما ان كان يستطيع ان يستجدي بالـــدمع ان لم تنفع الكلمة وان لم يتمكن من هذا وذاك ، فيمكنه اتخاذ اساليب الحيلة او قطع الطريق وما اشبه ذلك . وان خرج لقطع الطريق ، فقد توجب عليه ان يكون صاحب بطش وحيلة ، يقضـــا ثابت الجأش قوي العزيمة ، قاسيا لايعـــرف قلبه الرحمـــة ، ويستشهد بالوقائع التي خاضها والسجون التي دخلها ثم يقول : « سل

(١) البخـــلاء ص ٤٢
(٢) المصدر نفسه ص ٤٢ ـ ٤٣

عني الكتيفية والخليدية والخريبية والبلالية ، وبقية اصحاب صخر ومصخر ...» ويرى الدكتور طه الحاجري(١) انهم جماعات من الغوغاء الذين يبرزون في المدن وقت الفتن على نحو ما حدث في فتنة الامين والمأمون في بغداد . وقد تكون الكتيفة من الكتيف اي الذي شدت اكتافه داخل السجون، وقد تكون الخليدية نسبة الى محلة الخلد ببغداد . اما البلالية فانهم طائفة من المقاتلة بالبصرة منذ بدء ثورة الزنج فيها . في حين كان صخر ومصخر اخوين شقين ولعلهما كانا قاطعي طريق .

وما يلبث خالد بن يزيد ان يفتخر بنفسه ويشرح بطولاته ، ويظهر ما كان يتمتع به من دهاء وبراعة وقدرة على التخلص من المآزق ، حيث يواجه الازمات بقوة رجل صلب، شديد البأس .

ان اشد ما كان يخافه خالد بن يزيد ان يكون لسان أبنه فوق عقله ، وذكاؤه فوق حزمه . وحيث ان المال واسع والذراع ضيق ، فان اكثر ما كان يخشاه هو حسن الظن بالناس . ومن هنا جاءت وصيته التي تقول(٢) : فاتهم

(١) كتاب البخلاء/طه الحاجري ص ٢٩٦ وما بعدها .
(٢) البخلاء ص ٤٣

شمالك على يمينك ، وسمعك على بصرك ، وخف عباد الله على حب ما ترجو الله » .

والواقع ان خالد بن يزيد هذا ، انما يمثل فئة المكدين، بل كان كبيرهم وقائدهم الذي استطاع من خلال اساليبه ان يجمع الاموال الطائلة . وقد اجرى الجاحظ هذا الحديث على لسانه عندما نزل البصرة ، ليرسم بـه صورة عجيبة من صور الدهاء والبخل والكدية . ومن الواضح ان التكدية في عرفه لم تكن استجداء وسؤال الناس بالاحسان ، وانما كانت تعني الحصول على المال بالوسائل والاساليب المتاحة، حتـى ادى الامـر الى استخدام القـوة واستعمال العنف والقسوة . فضـلا عن استغلال طيبـة الناس ، واستثارة عواطفهم ، وحتى لو ادى ذلك الى اسالة الدموع ، واستخدام العواطف . وما من شك في ان الجاحظ قد وجد في هـذا الموضوع الطريف بالبصرة ما يمكن ان يثري كتاب البخلاء ، ويصور حالة اجتماعية فريدة من نوعها ، فأجلس هذا الرجل، خالد بن يزيد ، في احد مجالس البصرة ليسأله عن المكدين، ولعلنا لاحظنا ما تتضمنه الوصية من معاني تتمثل في كيفية جمع المال والقيام عليه ، والسبل التي تمكن من خلالها في جمع المال وتعاطي كل ما من شأنه ان يوفر الحماية للمال ، كما يصور الحياة الواقعية لهذه الطائفة تصويرا دقيقا ، كما

يصور الفساد الاجتماعي الــذي ساد البصرة وغيرها ، حتى لحق هذا الفساد ضمائر القضاة عندما احتال الآباء في حبس الاموال على اولادهم بالوقف ، فاحتال القضاة على اولادهم بالاستبحاث حتى ان خالدا هــذا يسخر من هــذا الموقف بقوله(١) : ما اسرعهم الى اطلاق الحجر •

والواقع ان ما يقوله الجاحظ على لسان خالد بن يزيد يدل على مــدى عمق ما كان يؤمن به الــرجل ، فهو يذكر محاسن التكدية واصناف المكدين ، وقد تبين للحاجري من حديث الجاحظ انه يتحدث من طائفة متحدة في روحها وفي نزعتها ، وفي اساليب حياتها ، وفي انها دائما راحلة ومهاجرة حتى ذكرته هذه الحالة بما يمارسه « النور والغجر والجيتان والزط والزواقيل وبنو ساسان » وغيرهم •

ونحن نميل الى الاعتقاد بان خالد بن يزيد لم يكن من هؤلاء الاقــوام بدليل قولــه(٢) : قالــوا وانك لتعــرف المكدين ؟ قال وكيف لا اعرفهم وانا كنت كاجارا في حداثة سني • « ولعل لفظ كاجار هذا هو اقرب ما يمكن لكلمــة غجر » ، فاذا صحت هذه الفرضية ، فان المكدين بعامة كانوا عبارة عن فئات مختلفة ، توحدت تحت زعامة واحدة هــي

---

(١) البخــلاء ص ٤٢

(٢) كتاب البخلاء / الحاجري ص ٢٧٩ ومابعدها •

زعامة خالد بن يزيد في ذلك الوقت الذي بدأ الجاحظ فيه في التعرف على هذه الطائفة .

ولقد اجتمع في شخصية خالد بن يزيد مظاهر الزعامة جميعها ، ونستطيع من خلال ما جاء في الوصية ، ان ندرس هذه الطائفة وزعيمها ، لتتكشف لنا عمق الظاهرة ، وما كان عليه امر الدين وغفلة الجماهير ، وامتداد نفوذ المكدين ، وقوة سلطانهم ، واتساع ميادينهم ، ودليلنا على ذلك ، هو ما سجله اصحاب المقامات بهذا الشأن اعتبارا من القرن الرابع عندما اصبحت الكدية والحيلة اساسا رئيسا لاحداث المقامات ، وهي كما نعرف ، صورة متطورة عن قصص الجاحظ في البخلاء ، واتخذت احداثها مما كان مألوفا في عالم البخل والبخلاء .

---

(١) البخلاء ص٣٩ .

الحمقى والمغفلون واصحاب النـوادر

يعلن الجاحظ في مقدمة كتابه عن وجـود بيئة متفردة بطبعها واتجاهاتها وفلسفتها ، ويقدمها من خلال شخصيات ثلاثة هي(١) : خباب والجهجهاه وصحصح ويـرى ان هذه الشخصيات تعبر عن حالة اضطراب فكري ونفسي واجتماعي سادت البصرة ، وكادت ان تعصف بالحياة العربيـة فيها ، ويبدأ الجاحظ الذي عاصر هؤلاء الشخصيات واستمع الى مذاهبهم الغريبة ، بالاشارة الى الآراء التي جاء بها خباب الذي كان فيما يبدو ناطقا باسم المزدكية التي لاترى ما يمنع مـن اشاعة الفوضـى الجنسية واستباحة المحـرمات • ويـرى الاستاذ فلوتن(٢) ان خباب هذا قد يكو هو « جناب بـن الخشخاش القاضي » الـذي اسند اليه الجـاحظ في كتابه الحيوان بعض الملاحظات عن النساء • وينص الجاحظ على

(١) البخـلاء ص ٣ـ٤
(٢) كتاب البخلاء / الحاجري ص ٢٣٧

ان الأشارة الى خبــاب هذا جــاءت للاجابة عن سؤال(١) وسألت ان اكتب لك علة خباب في نفي الغــيرة ، وان بذل الزوجة داخل في باب المواساة والاثرة ، وان فرج الامة في العارية كحكم الخــدمة وان الزوجــة في كثير من معانيها كالامة ، وان الامة مال كالذهب والفضة ، وان الرجل احق ببنته من الغريب ، واولى باخته من البعيد ، وان البعيد احق بالغيرة والقــريب اولى بالانفــة ، وان الاستزادة في النسل كالاستزادة في الحرث ، الا ان العادة هي التي اوحشت منه، والديانة هي التي حرمته ، ولأن الناس يستزيدون ايضا في استعظامه ، وينتحلون اكثر مما عندهم في استشناعه ، وهذا يعني ان خبابا هذا يمثل تيارا مذهبيا اباحيا كافرا ، يضرب صفحا بالقيم الاخلاقية والمواقف الدينية الواضحة ولا سيما في مجال التنظيم الاسري الذي دعت اليه الاديان السماوية ، وحضت من خــلال الآيــات الواضحات على نبذ الشيوعية الجنسية والاباحية الاخلاقية • وحيث ان هــذه الافكار في معظمها تتعارض والاعــراف والعــادات والتقاليد والتربية العربية ، فقد اعتبر خباب واحدا من اولئك الذين كان همهم تدمير الخلق العربي ، وبالتالي القضاء على العنصر العربــي

---

(١) البخــلاء ص ٣ـ٤

والدين الحنيف الذي جاء به نبي عربي ضرب المثال الاعلى في الخلق والاستقامة .

اما الجهجاه او ابو الجهجهاه الذي لقبه الجاحظ بالنوشراني فقد كان صاحب مذهب غريب اراد من ورائه ان يشكك في قيمة الصدق . وكتحصيل حاصل ، فانه يدعو الى نصرة الكذب والدفاع عنه ، والانتصاف له ممن كانوا يتجنون عليه ، ناسين فضله ومناقبه ، يقول الجاحظ(١) : « وعلة الجهجهاه : في تحسين الكذب في مواضع ، وفي تقبيح الصدق في مواضع ، وفي الحاق الكذب بمرتبة الصدق ، وفي حط الصدق الى موضع الكذب ، وان الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه ، وتذكر مثالبه ، ويحابون الصدق بتذكر منافعه وبتناسي مضاره ، وانهم لو وازنوا بين مرافقهما ، وعدلوا بين خصالهما ، لما فرقوا هذا التفريق ، ولما رأوهما بهذه العيون » .

وما من شك في ان هذه المنطلقات التي شهدها القرنين الثاني والثالث الهجريين تدل على مدى ما كان للشعوبية من خطورة على المجتمع الاسلامي وما كانت تذيعه من افكار هدامة . واذا كان خباب قد اعتمد على المزدكية الفارسية ،

---

(١) البخلاء ص ٤

فان الجهجهاه قد اعتمد ايضا على المذهب نفسه فضلا عن الفلسفة اليونانية ولا سيما السوفسطائية ، التي احالت المعارف والمبادىء والثوابت الى موضع الشك والجدل والانكار ، واخضعت الظواهر جميعها الى المنطق ، في محاولة منها لهدم القيم والاخلاق والفضائل •

والواقع انه ليس غريبا ان يحصل الجهجهاه مثل هذه المبادىء ، وذلك بصرف النظر عما ذكره التاريخ عن غموض حياة الرجل ، ووصفه بالجنون حينا وبالزندقة حينا آخر • فالدلائل جميعها تشير الى ان حركتي الشعوبية والزندقة قد اشاعتا جوا من الشك واضطراب من خلال اساليب الفلاسفة والمتكلمين في الجدل والمناظرة ، وان مهمة اصحاب هذه الافكار كانت محاولة هدم القواعد التي يقوم عليها الاسلام الذي قوض دعائم الامبراطوريات الفارسية والرومية •

وعندما نتناول آراء صحصح نلاحظ اول ما نلاحظ انه شارك من سبقه في اشاعة فوضى من نوع آخر ونقصد بذلك فوضى الآراء والدعوة الى عدم الاهتمام والنسيان ، وسلوك سبل الغباء والغفلة •• يقول الجاحظ(١) : « ومذهب صحصح في تفضيل النسيان على كثير من الذكر ، وان الغباء

---

(١) البخلاء ص ٤

في الجملة انفـــع من الفطنـــة في الجملة ، وان عيش البهائم احسن موقعا من النفوس من عيش العقلاء ••» وهو مذهب غريب حقا لايبرر شيوعه اضطراب ميــزان الغنى والفقر في المجتمع ، ذلك ان هذا المذهب يناقض مهمة الانسان الطبيعية في الكون والواقع الاجتماعي والنفسي له ، اذ كيف يعقل ان يكون الغباء انفع من الفطنة ، الا اذا افترضنـــا ان دعـــوة صحصح تتضمن انكـــارا للحيـــاة العقلية ، والسخرية من الانسان وكمال خلقه •

والواقع اننا نستطيع ان نسلك هؤلاء الثلاثة في نطاق الحمقى والمغفلين ، وذلك على الرغم من ان بعض الباحثين(١) قد سلكهم في سلك المتكلمين واصحاب الجدل والمناظرة ، ذلك اننا ، حتى لو تجاوزنا عن الدوافع التي جعلتهم يتبنون هذه الاراء ، لانعتبرهم اكثـــر من اشخاص اغفـــال مرضى بالحمق ، حاولوا ان يبرروا تصرفاتهم من خلال دعواهـــم الفلسفية التي لم تجد لها صدى بسبب غرابتها • ومن هنـــا نستطيع ان نعدهم في قائمة الحمقى واصحاب النوادر •

ويظهر ان النـــادرة والفكاهة والظرف والتظرف كانت لها اسواق رائجـــة في البصرة في القرنـــين الثاني والثالث الهجريين بدليل ما يواجهنا من اسماء ذكرها الجاحظ وغيره

(١) البخـــلاء ص ٦

في الكتب المؤلفة . وقد لعب هؤلاء ادوارا كبيرة في الحياة الاجتماعية مثلما لعبوا ادوارا في الحياة الأدبية . وقد افاد الادباء من نوادرهم وفكاهاتهم وظرفهم كثيرا ، ولا سيما الجاحظ الذي يعترف بالمدى الواسع الذي لعبه في حياته الادبية .

ومن الظرفاء واصحاب النوادر ممن يذكرهم الجاحظ الهيثم بن مطهر الذي كان اعرج . وعلى الرغم من ان الجاحظ يسلكه في سلك اصحاب النوادر ويساويه بابي الحارث جمين ومزيد وابن احمر وغيرهم الا ان الواقع يدل على ان نوادره وظرفه لم يرزقا الشيوع . في حين كانت نوادر ابي اسحق مزيد شائعة وينقلها الشعب باعتبارها تتوافر على الثقافة العابثة اللاهية . وتنطبق هذه الصفة على النفاشي وزرجون والدلال وهنب وطويس وغيرهم . ومن جهة ثانية كانت نوادر صالح بن حنين باردة ، وكان يتهم بالسخف . وليس بعيدا ان يكون الجاحظ اختار هذين الصنفين من اصحاب النوادر الحارة والباردة ليصور موقفين ناقدين . وليس هذا الامر بغريب على رجل مرح النفس متهلل الخاطر نزاع الى الضحك ، يحاول ان يظهر فئتين او موقفين متضادين ولو انهما ينتسبان الى الاصل الواحد . بيد ان بعض اصحاب النوادر في البخلاء من البصريين كانوا يتجرون

بالنادرة ويكتسبون مـــن ورائهـــا، وذلك من خلال دعوة السراة لهم الى الموائد لقاء اعطيات • وهذا يعني ان ســراة القوم كانوا يعتبرونهم اداة مـــن ادوات الترفيه ومظهرا من مظاهر البذخ • ومن هؤلاء : ابو الحارث بن جمين(١) ومزبد اللذين وفدا الى العراق ملتمسين هذه التجارة في هذا الباب• بل ان كثيرا من التلاميذ كانوا يختلفون على امثـــال هؤلاء ولا سيما المشهورين ، ليعلموهم الهـــزل والنـــوادر • وقد اورد الحصري(٢) طائفة من نوادر هؤلاء وكذلك فعل كل من ابن قتيبة والثعالبي(٣) ولا سيما ما اثر عنهم من تندر على الطعام(٤) ومن اصحاب النوادر من اختص في حفظها والتندر بها واضحاك الناس منها وهم كثيرون • وكان لهؤلاء رواة يأخذون عنهم من مثـــل اشعب الـــذي عرف بطمعه وربما تخصص بنوادر الطمع والجشع • واورده الجـــاحظ(٥) في سياق حديثه عن زياد الحارثي الذي اطعم في رمضان قومـــاً وكان فيهم اشعب • فعرض اشعب للجدي من بينهم ، فقال زياد :

---

(١) الحيـــوان ٧ : ٦٩

(٢) جمع الجواهر ٦٣ ــ ٦٤ ، ١٧٤ ــ ١٧٥

(٣) عيون الاخبار ٣ : ٣٦٢ ، وثمار القلوب ٣٥ ــ ٣٦

(٤) البخـــلاء ١٦٣

(٥) المصدر نفسه ١٣٦

ــ اما لاهل السجون امام ؟ قالوا :

ــ لا ! قال :

ــ فليصل بهم اشعب ، فقال اشعب :

ــ او غير هذا اصلح الله الامير ؟ فقال :

ــ وما هو ؟ قال :

ــ احلف بالمحرجات ان لا اكل لحم جدي •

اما الغاضري(١) فقد كان معاصراً لاشعب منافساً له في باب الطمع • وكان من خلال تحامقه يسوق النادرة ويلتمس بها الاضحاك • ولا يقصر الجاحظ حديثه على العنصر العربي بل انـه يسوق بعضها منسوبة الى شخصية يونانيـة كانت تسكن على شاطىء الفرات واسمه ديسيبموس(٢) الذي عده في اصحاب النوادر •

اما قاسم التمار مع ابنه ابراهيم فيورد له الجاحظ(٣) بعض النوادر ، ولو انه يعده في البخـلاء ، مع ثمامة الذي كان فيما يظهر كريماً طيب النفس وطيب الاكل • ويظهر انه كان على شيء من الغفلة لعله كان يصطنعها ، كما يلاحظ طه الحاجري(٤) ، التماساً للنادرة • اما ابراهيم بن سيابة فقد

---

(١) المصدر نفسه ص ١٩٦

(٢) المصدر نفسه ص ١٧١

(٣) المصدر نفسه ص ١٨١

(٤) الحاجري ص ٣٦٠ •

كان من شخصيات النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ، وهو يمثل طبقة من الادباء او المتأدبين غلب عليهم حب النادرة ، والحياة اللاهية العابثة وكان ممن تضمهم المجالس التي تضم كبار القوم ، حيث كان يصطنع النادرة ويلقيها على مسامعهم .

واذا كان الجاحظ قد سمى اصحاب النوادر وتتبع مجونهم وخبر خبيث لسانهم كالجماز(١) وامثاله وانه لم ينس بعض الاسماء التي تدل على الدهاء . من مثل : دعيميص(٢) الذي يضرب به المثل فيقال « ادل على دعيميص الرمل » ، فانه اولى عناية خاصة للمغفلين والحمقى . فقاسم التمار(٣) كان على شيء من الغفلة ، وانه كان يصطنعها ليتندر بها ويتفكه . وكان يجالس المتكلمين ويطايبهم بنوادره وكانوا بدورهم يصلونه ويكرمونه ، ومع ذلك فقد كان قبيح الخلقة عظيم العنق غير محتشم ولا يأبه لشيء . ويظهر ان الجاحظ قد اختار هذه الشخصيات التي غلب على اصحابها الغفلة والنسيان او تعمد اظهارهم بمظهر الغفلة والنسيان عن قصد . فقد اختار لهذه الغاية كذلك ابن سافري(٤) الذي

---

(١) البخلاء ص ٦٤
(٢) المصدر نفسه ص ٤٠
(٣) المصدر نفسه ص ١٨١
(٤) المصدر نفسه ١٩٠

وصف بانه كان رجلا غفلا ضعيف المنة سهل القياد للمخادع والمتغفل • كما كان ابو همام السنوط(١) الذي وصف بانه كان متعبدا غفلا ، وغيرهم من المغفلين ، من امثـال احمـد بن الخاركي(٢) ويوسف بن عمر(٣) ، اللذان اتهما بالنسيان والغفلة وعدم الاتزان • على ان اهم بيئة ظهرت في هذا المجال كانت بيئة اصحاب النوادر الذين وصفوا بالطمع والتطفل ، ويقف على رأسهم اشعب(٤) الـذي وصف بانـه كان مليح النادرة ، ظريفا ، شديد الطمع واشتهر بحسن الصـوت في الغناء • وكان يجيد الادوار والرقص القادر على الاضحاك مثلما يجيد النوادر والتعليقات اللبقة التي يكون مجالها في الغالب الطمع • وقد وصف بانه كان ازرقا واحولا واقرعا والثغا ، وساعدت هذه الصفات في اتقانه الحركات والنوادر • وممن كان معاصرا لاشعب ومنافسا له الغاضري(٥) ودارت معظم نوادره حول الطمع والجشع كذلك • وربما كان احمقا او انه كان يتحامق عندما يسوق النادرة • وقد نهج نهج اشعب عدد من الطفيليين كان اظرفهم طفيل الاعراس(٦) ، الـذي

---

(١) المصدر نفسه ١٩١
(٢) المصدر نفسه ١١٣
(٣) المصدر نفسه ص ٦٥
(٤) المصدر نفسه ١٣٦
(٥) المصدر نفسه ١٩٢
(٦) المصدر نفسه ٦٨

كان يتبع الاعراس من غير ان يدعى اليها • وقد اورد ابن قتيبة(١) وصية له يوصي بها اصحابه ، يقول فيها : « اذا دخلت عرسا فلا تلتفت تلفت المريب ، وتخير المجالس ، واجد قيابك ، واعمل على انها العقدة التي تستغل ••• ولا تنظر في عيون اهل المرأة ولا عيون اهل الرجل • فيظن هؤلاء انك من هؤلاء ، وهؤلاء انك من هؤلاء » • هذا الى جانب ابراهيم بن سيابة(٢) الذي غلب عليه حب النادرة ، ومحمد ابن عباد(٣) الذي عدد في مشايخ الظرفاء •

ولعل فيما اوردنا في هذا المجال يدل على ان الجاحظ كان واسع الدراية دقيق المعرفة قوي الملكة في استحضار المادة العلمية التي تساعده على ربط الاحداث والاستعانة بالشواهد التي تقوده الى دعم وجهة النظر • وما من شك في ان الاستشهاد بالاسماء الحية المتداولة التي تعني الكثير في اذهان الشعب امر من الاهمية بمكان ، فهي تساعد على ربط الاحداث بعضها ببعض ، كما تستحضر من الصور الشعبية الشائعة ما يثير المواقف المتباينة ، القادرة على ان تتغلغل في النفوس وتثير الحركات النفسية ، بما تبرزه من واقعية مطلقة وبساطة في التعبير •

---

(١) عيون الاخبار ٣ : ٢٣٢

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٤

(٣) المصدر نفسه ص ١٩٢ •

والجاحظ بما عرف عنه من بعد عن التحرج والتأثم في ايراد بعض الامور التي لايستطيع المجتمع المجاهرة بها او نسيانها ، لايتوانى في اظهار الاسماء التي تساعده على تبني المواقف الساخرة ، وتدفع به الى الكتابة في الموضوع العام الذي يريد ان يوصله للناس ليناسب طبقاتهم الاجتماعية ومستوياتهم العقلية ، ولا سيما تلك التي تتخذ من الحياة الاجتماعية موضوعا للكتابة . وهكذا نرى الجاحظ يسخر الموضوعات العامة لصالح الموضوع الخاص ، بصرف النظر عن الاغراض الشخصية او الاغراض الفنية او الادبية التي يسعى الى تحقيقها .

ونحن نميل الى الاعتقاد بان الشخصيات التي استحضرها لكتاب البخلاء او التي رسمها ساعدت الكتاب في ان يظهر بالشكل الذي ظهر عليه . ولم يظهر الجاحظ شخصياته من طبقة واحدة فحسب ، وانما من الطبقات جميعها ، فهناك شخصيات تنتسب الى الطبقة البرجوازية والطبقة الرأسمالية ، وهناك شخصيات تنتسب الى اجناس مختلفة ، وهناك شخصيات تنتسب الى الطبقات الشعبية ، والطبقة الحاكمة والطبقة الدينية ، وما الى ذلك . ولا ريب ان نشأة الجاحظ في البصرة حيث كان يشاهد افراد هذه الطبقات عن كثب ، مكنته من الاتصال بها وببيئاتها ، مما كان له اكبر الاثر في تصويرها ، بل ان نظرته الفاحصة

الدقيقة مكنته مـن ان يكشف خباياها وخفاياها ودقائقها ، وان يعبر تعبيرا دقيقا واضحا عما يخالجها من مشاعر •

والجاحظ عندما جمع بين الاحاديث الطويلة والرسائل المسهبة والطرف الصغيرة والنوادر الحقيقة ، ايثارا لاستهواء القراء ، تأخذه النزعة العربية • لذلك نراه يحتشد مـن الشخصيات العربية وغـير العربية ما يحقـق الاهـداف والاغراض • واذا كان قد اتخذ البصرة مسرحا ، والشعب البصري اساسا لمادة كتابه كانت البصـرة زاخرة بصنوف الاجناس والالوان وانواع الثقافات ، فانه قد خص العرب بمادة قوية في كتابه ، كأن يتحدث عن علوم العرب وطعامهم• وكان يولد الابواب ويضع الاحاديث التي تساعد على تطور فكرة الكتاب • وبالطريقة نفسها قـام بحشد طائفـة من الشخصيات التاريخية لتخدم الغرض العام • ومـع ذلك ، فقد قدم لنا ثقافات هذه الاجناس ، وعبر عن وجهات نظـر الشعوب ، وكان قادرا على استبطانها •

وربما لجأ الى وضع الاحاديث على لسان الاخرين خدمة للافكار التي يحملها ، وربما حمل شخصياته اكثر مما تحتمل• ومع ذلك ، فقد برع في التصوير والوصف الواقعيين لكل شخصية على حدة ، حتى يخيل للباحث ان كل شخصية قد استكملت المتطلبات الضرورية للظهور حتى يمكن اعتبارها الشخصية الاساسية في الكتاب •

بخلاء البصرة في بخلاء الجاحظ :

هذا الكتاب يصور احوال فئة من الناس اخذت لنفسها منهجا لحياة معينة وتصرفت من خلالها وسلكت السبل من اجل تحقيق غاياتها المتمثلة في البخل الذي شمل واقعهم ومفهوم حياتهم • استهل كتابه بالرد على صديق طلب اليه ان يحدثه عن البخل ونوادره(١) ومن اجل ذلك فقد وضع منهجا واضحا تمثل في تقديم عينات من البخلاء ، وسجل نوادرهم وسرد قصصهم بادئا باهل مرو واهل خراسان ، متوقفاً عند المسجديين ، ذاكرا عددا من البخلاء الاشحاء من اصحابه ومعاصريه • اما غاية الكتاب فتتمثل في الترويح في النفس واضحاك القارىء • يقول الجاحظ(٢) « ولك في هذا الكتاب ثلاثة اشياء : تبين حجة طريفة ، او تعرف حيلة لطيفة ، او استفادة نادرة عجيبة وانت في ضحك منه اذا شئت ، وفي لهو اذا مللت الجد » •

---

(١) البخلاء ص ١٠

(٢) المصدر نفسه ص ٤٠

ويظهر ان الجاحظ قد عالـج مشكلة البخل في كتابه باعتبارها ظاهرة انسانية من ناحية ، وباعتبارها ظاهرة بصرية وجدها في الطبقات الاجتماعية البصرية جميعها من ناحيـة أخرى • وربما لاحظ ان استشراءه عند الطبقة الوسطى من البورجوازيـين بخـاصة ، وهي الطبقة التي عني المؤلف بابرازها • ومن شخصيات هـذه الطبقة : زبيدة بن محمد واحمد بن خلف اليزيدي وخالد بن زيد وغيرهم • وقد اراد ان ينتقد طبقة محددة ظهرت في المجتمع ، ارادت ان تسلك طرقا جديدة من العادات والتقاليد لم يألفها العربي ، ويعلن عن رفضه لهذه المؤثرات الدخيلة التي يـرى انها ستحدث فجوات اخلاقية واسعة في عادات العرب وتقاليدهم • وهذا يعني ان الغاية تتعـدى الاضحاك والتسلية والترفيـه الى السخرية المرة من فكرة البخل ومن البخلاء انفسهم ، وردعهم وتأنيبهم الى درجـة الشتم ، مستخدما الاسلوب القصصي الاخباري ، الذي يحاول فيه ان يربط الاخبار بعضها ببعض، لتنبض بالحياة وبالحركة ، وان كان قد وقف وقفة المتفرج، الذي رصد الحركات ودون الاقـوال والملاحظات ، تاركا لبخلائه حرية الحديث دون ان يدخل نفسه شريكا او موجها او معلما يردع وينهي ويوجه •

ان هذه النظرة للكاتب وللكتاب تتطلب منا ان نتعرف

على مدينة شهدت ولادة طبقة اثرت بشكل من الاشكال بفضل اقتصادها على الحياة العامة حتى شكلت فيما بينها ظاهرة انسانية عربية بصرية • وهنا وجب علينا ان نحلل مظاهر الكتاب وما وفره الجاحظ من مادة ليحقق الغاية منه • ومن المؤكد ان المؤلف قد عالج ظاهرة البخل بمقارنتها بالكرم العربي المعروف • لذلك فان علينا ان نتوقع وجود خطين متوازيين هما خط البخل وخط الكرم •

وتبدو البصرة في كتاب البخلاء محورا للاحداث جميعها بالوانها المختلفة ، وهي مركز الثقل ولب الموضوع والقضية الاساسية • وقد يكون الجاحظ اختار البصرة لاعتبارات شخصية وقد يكون اختارها لاعتبارات اخلاقية ، هدفها الاصلاح والنقد ، وقد يكون اختارهالتمثل انموذجا للمدن العراقية التي شاع فيها البخل او انتشر في معظمها •

وحتى نتبين ما الذي اراد الجاحظ تسجيله في كتاب البخلاء ، وما الذي اراد ان يسجله على البصرة من مآخذ ومواقف وسقطات وهفوات وانحراف وما تشهده من امراض اجتماعية واخلاقية ، فلا بد من رصد بعض الظواهر التي أوردها الجاحظ في كتابه وتخص البصرة بشكل مباشر او بصورة واضحة لها من ذلك ما ذكره الجاحظ لها من مجموعة من الامور العامة التي يمكن حصرها في النوادر والمذاهب

الفكرية والطبقات الاجتماعية والقصاص والبخلاء والزهاد والظرفاء والطب والازياء والامثال والمأكولات والصناعات الشعبية ، والشعراء والرواة والاقوام والتنجيم واللصوص والـولاة والمجـان والطفيليين وما شاكل ذلك • وتجيء النوادر في البخلاء مقتصرة على بعض افراد ، ولا سيما تلك التي تختص بها بعض الفئات البصرية ولعـل اغرب انـواع النوادر ما جاء به نفر منهم : الحزامي(١) وابو الحارث بن جميل والهيثم بن مطير ومـزبد والنقاشي والدلال والمكي واشعب وديميوس وقاسم التمار والغاضري وابراهيم بـن سيابة ، وغيرهم وتتميز نـوادر هؤلاء انها نابعـة من بيئة البصرة او من بعض حواريها • وكانت النوادر اذا صدرت عن هؤلاء سـرعان ما تنتشر • وقد تميز معظم هـؤلاء بانهم اصحاب فكاهة وعبث ، وانهم متخلفون ، وربما كان الواحد منهم يغطي تخلفه بما كان يصطنعه من فكاهة وعبث(٢) •

وحيث ان الكتاب مبني اساسا على البخل والبخلاء ، فاننا نتوقع ان يحفل بايراد عدد كبير جدا من البخلاء الذين كان يضرب بهم المثل من هذه الناحية • ويعتبـر الجاحظ

(١) البخلاء على التوالي : ص ١ ، ٦ ، ١٣٦ ، ١٧١ ، ١٨٤ ، ١٩٢ ، ١٩٤ •

(٢) الحيـوان ٧ : ٦٩

البصرة بيئة خصبة للبخلاء وارضا خصبة لنمو البخل لاسباب كثير يشير الى بعضها • والواقع ان الكتاب من اوله الى اخره مؤسس على هذه الناحية ، ففي المقدمة(١) واعتبارا من الصفحة الاولى نجد ان الكتاب مخصص لذكر نوادر البخلاء واحتجاج الاشحاء ، ولم سموا البخل اصلاحا والشح اقتصادا ، في حين اجمعت الامة على تقبيحه وشناعة أسمه وخمول ذكره وسوء اثره على اهله • وقد ساق ذلك كله في قصص مبنية على الحجة ، ولم يقف الجاحظ عند هذا العرض وانما تناول موضوع الغيرة والاستزادة في الحرث وتحسين الكذب وتقبيح الصدق ، وتفضيل النسيان على كثير من الذكر والغباء والفطنة والبكاء والضحك وموضعهما ومقدارهما •

وحتى يدل الجاحظ(٢) على ان قصصه قد التقطت من بيئة يعيش فيها نفر ما يزالون احياء حتى زمان تأليف الكتاب، فقد اشار الى انه يتضمن احاديث كثيرة متى اطلع منها حرفا عرف اصحابها ، وان لم نسمهم ، ولم نرد ذلك بهم • وسواء سميناهم او ذكرنا ما يدل على اسمائهم ، منهم الصديق والولي والمستور والمتجمل ••• ولو انه لم يصرح ببعض الاسماء لما توفر منها ، وبالتالي فانه عمل على ان يعرف

---

(١) البخلاء ص ١ـ٥ •

(٢) المصدر نفسه ص ٦

باهلها • وهذا يعني انه احجم عن ذكر بعض الاسماء في حين صـرح ببعضها الاخـر ، حتى تتصل بمستحقيها وبمعادنها واللائقين بها ، وفي قطـع ما بينها وبـين عناصرها ومعانيها سقوط نصف الملحة ، وذهاب نصف النادرة •

ويمثل موضوع البخـل والبخلاء جـزءاً كبـيرا من الكتاب ،فمنذ الصفحة الاولى يظهـر من البخـلاء الاسماء التالية(١) الحزامي والكندي والحضين بن المنذر وابن ابي كريمة وخاقان بن صبيح ومحمد بن يسير وعبدالله العروضي وابو عبد الرحمن الثوري وجعفر بن سعيد وابن العقدي والاصمعي وغيرهم •

ويظهـر هؤلاء وغالبيتهـم من البصرة صـورة لبخل اصبح مضرب الامثال ، فالحزامي واسمه عبدالله بن كاسب، المنسوب الى بني حزام ، وهي من احياء البصرة ، موصوف بانه كان ابخل من برأ الله • قال الجاحظ(٢) : وكان له في البخل كلام ، وهو احد من ينصره ويفضله ويحتج له ويدعو اليه • ويروي انموذجات لبخله من مثل : كان اذا كان جديد القميص مغسولة ، ثم اتوه بكل بخور الارض لم يتبخر ،

---

(١) البخلاء انظر على التوالي ١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ٢١ ، ٤٩ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٧ ، ١٨٨ •

(٢) البخلاء ص ٥٢ـ٥٣

مخافة ان يسود دخان العود بياض قميصه • وكان يقول : حبذا الشتاء ، فانه يحفظ عليك رائحة البخور ••••

اما الكندي ، فهو بصري المنشأ ، وتتضارب الاقوال حول هويته ان كان الفيلسوف ابا يوسف او غيره • وبصرف النظر عن ذلك ، فهو يظهر في الكتاب بخيلا محتجا له ويروي له الجاحظ بعض المواقف التي تدل على بخل مفرط من مثل(١) : كان الكندي لايزال يقول للساكن ، وربما قال للجار : ان في الدار امرأة بها حمل ، والوحمى ربما اسقطت من ريح القدر الطيبة ، فاذا طبختم فردوا لشهوتها ولو بغرفة او لقمة ، فان النفس يردها اليسير •

اما الحضين بن المنذر الرقاشي فهو عربي • كان من رؤساء اهل البصرة في القرن الأول وتعد اسرته من رؤساء بكر ، وكان جده الحارث بن وعلة بخيلا ، ويظهر ان الحضين قد ورث البخل عن جده ، ويسلك في مسلكه ابن ابي كريمة الذي قيل بانه ايضا رجل بصري ، وربما نظم شعرا ظهر فيه الطابع البدوي وشعرا اخر اورد منه الجاحظ بعض الابيات التي تتضمن كلمات فارسية او مقاطع منها • وقد عده الجاحظ في البخلاء واحيانا في الظرفاء •

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٠ وما بعدها •

ومن البخلاء الذين عاصروا الجاحظ محمد بن يسير الرياشي الشاعر البصري الذي يكثر الجاحظ من روايـة شعره ، وهو ينحو ناحية معالجة النوازع الاجتماعية المختلفة. وقد ذكره الجاحظ بين البخلاء وظل طوال حياته في البصرة لا يبرحها يقول الشعر ويشرب النبيذ عند اصدقائه ويستقيه منهم • ومن البخلاء من كان من اصحاب الجاحظ ، من مثل عبدالله العروضي الذي روى عنه • وقد تحدث الجاحظ عن جفاء كان بينه وبين ابي اسحاق النظام بسبب البخل • وليس هذا بغريب ، ذلك ان الجاحظ(١) يروي عنه حادثة الجدي الذي طلب صاحبه من الشواء ان يبطىء في انضاجه حتى اذا تم له غير ما اراد ، جلده ثمانين جلدة جلد القاذف الحرة •

ومن البخلاء البصريين المعروفين ابو عبدالرحمن الثوري الذي يقدم اشد صور البخل وضوحا • ويفهم من كلام الجاحظ ان الرجل سري من سراة البصرة ، كان يملك الارض ويصطنع التجارة • ووصفه الجاحظ(٢) بانه كان شديد البخل ، شديد العارضة ، عضب اللسان • وكان يحتج للبخل ويوصي به ويدعو اليه ، وقد ألف في البخل كتابا وبهذا الصدد يقول الجاحظ : وما علمت ان احدا جرد في

---

(١) البخلاء ص ٤٩

(٢) المصدر نفسه ٩٣ ، ٩٤

ذلك كتابا الا سهل بن هارون وهو • وليس هذا بمستغرب على الثوري الذي قال لابنه : اي بني : ان انفاق القراريط يفتح عليك ابواب الدوانيق ، وانفاق الدوانيق يفتح عليك ابواب الدراهم ، وانفاق الدراهم يفتح عليك ابواب الدنانير• والعشرات تفتح عليك ابواب المئين ، والمؤن تفتح عليك ابواب الالوف حتى يأتي ذلك على الفرع والاصل ، ويطمس على العين والاثر ، ويحتمل القليل والكثر • اي بني : انما صار تأويل الدرهم « دار الهم » وتأويل الدينار « يدني الى النار » •• الخ •

ويقال ان الرجل كان ينزل في مسجد بن رغبان ببغداد• ويظهر ان اهل البصرة كانوا يفضلون النزول بجوار ذلك المسجد ، ولهم فيه حي • ويقال ان هذا البخيل كان يشتري رأس الفتى من الضأن لوفارة الدماغ ، وكان لايشتريه الا يوم السبت • وفي حين ان البصريين يختارون رأس لحم الماعز الخصي على الضأن كله ، فان الثوري لايختار الا الضأن لانه اشحم والحم وارخص ، واما اختيار الثوري شراء الرأس يوم السبت فذلك لان القصابين يذبحون يوم الجمعة اكثر ، فتكثر الرؤوس يوم السبت على قدر الفضل فيما يذبحون • ولان العوام والتجار والصناع لايقومون الى اكل الرؤوس يوم السبت مع قرب عهدهم باكل اللحم يوم الجمعة •

ومن اصدقاء الثوري جعفر بن سعيد ، وهو احد الذين يحكي الجاحظ عنهم ويعده في البخلاء • وكان من جلساء الثوري وتلاميذه بالبخل • ويقال انه كان مولعا باطراء الحيوانات والطيور ، وتبع اسلوب يولد من خلاله المعاني • وكان فكها الى حد ما وله ابيات من قصيدة رواها الجاحظ يشكو فيها براغيث البصرة •

ويعتبر العقدي واحدا ممن ذكرهم الجاحظ في بخلائه وكان بخله مثالا لمن يستغل من حوله في سبيل تقديم خدمات له • حتى اذا ما حصل على ما يريد خرج الناس من دعوته بما لا طائل من ورائه • وكان يعد في الاثرياء فقد كان له بستان • وربما استزاره اصحابه اليه • يقول الجاحظ(١) : وكنت لا اظنه ممن يحتمل قلبه ذلك على حال • فسألت ذات يوم بعض زواره فقلت : احك لي امركم ! قال : وتستر علي؟ قلت : نعم ما دمت بالبصرة • ثم يروي الجاحظ حكاية الارز غير المقشور ••• لتكون النتيجة عشاء بخبز ارز اسود غير منخول بالشلابي •

ويسمي الجاحظ للاصمعي(٢) احد البصريين

---

(١) البخلاء ١١٧

(٢) المصدر نفسه تتبع بخل الاصمعي في الصفحات التالية ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ـ ١٩٧ ، ٢٠٣ ـ ٢٠٥ •

الاصـــلاء الـــذي ولـد بالبصـــرة وعـــاش فيها ، عـــددا من النـــوادر التي تـدل على ان الرجـل قد كـان بخيلا مفرطا في بخله . واعتبره شارل بـلات(١) في عـداد البخلاء البورجوازيين الذي كان يعيش عيشة تتناسب ونظرته للاقتصاد . وقد اظهـره الجاحظ اقل بخـلا من البخـلاء الاخرين ، واشار اليه في اكثر من موضع على انه راو لنوادر البخلاء كأن يقول : وذكر الاصمعي ... وقال الاصمعي.. وحدثنـي الاصمعي .. واقبـل الاصمعـي على جلسائـه يسألهم ....

ومهما يكن من امر بخلاء البصرة في الكتاب فأنهم لم يكونوا وحدهم فيه ، فهناك عدد كبير من بخلاء مدن اخرى. وكما ان هناك بخلاء مدن ، فان هناك مدنا بخيلة . وربمـا كانت مرو والابلة من اكثر المدن بخلا . وتعتبر مدينة مرو من اكبر المدن في خراسان . كان اهلها يصنعون النسيج ،وقد وصفوا بدقة النظر ، وربما جاءهم الحرص من هذه الناحية فوصفوا بالبخل . ومن اشهر بخلائهم : ابن ابي كريمة وابو عبدالله المروزي وغيرهما(٢) ومما يروي عن ديكة مـرو ما ساقه الجاحظ ، قال وقال ثمامة : لم أر الديك في بلدة قط الا وهو لاقط ، يأخذ الحبة بمنقاره ثم يلفظها قدام الدجاجة،

---

(١) شارل بلات ص ٣٤٦ .

(٢) البخـــلاء ص ١٣ ـ ٢٣

الا ديكة مرو فاني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب • قال : فعلمت ان بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء ، فمن ثم عم جميع حيوانهم • وفي قطعة شعرية اوردها الهمداني يقول الشاعر :

مياسير مرو من يجود لضيفه
بكرش فقد امسى نظيرا لحاتم
ومن رش باب الدار منهم بغرفة
فقد كملت فيه خصال المكارم
يسمون بطن الشاة طاووس عرسهم
وعند طبيخ اللحم ضرب الجماجم
فلا قدس الرحمن ارضا وبلدة
طواويسهم فيها بطون البهائم

اما الابلة(١) ، فقد وصفت بانها مدينة البخلاء • وهي مدينة قديمة من مدن الخليج العربي على شاطىء دجلة البصرة في زاوية الخليج • يخرج منها نهر يسمى نهر الابلة يغرب الى البصرة • وكان هذا النهر من اجمل المنازة المشهورة ، حتى كان الاصمعي يقول : جنان الدنيا ثلاثة : غوطة دمشق ونهر بلخ ونهر الابلة • ويصور الجاحظ اهل الابلة بأنهم بخلاء

---

(١) البخلاء ص ١١٣

يبالغون في تقديرهم للثروة ويسعون بكل الوسائل لجمعها • ويسوق(١) ما يفيد بان احد شيوخ الأبلة كان يزعم ان فقراء أهل البصرة افضل من فقراء اهل الابلة لانهم اشد تعظيما للاغنياء واعرف بالواجب • وكمثال على بخل اهل الابلة يروي الجاحظ هذه الحكاية :

يكون الزائر من اهل البصرة عند الابلي مقيماً مطمئنا ، فاذا جاءالمد قالوا ما رأينامدا قط قد ارتفع ارتفاعه ، وما اطيب السير في المد ، والسير في المد الى البصرة اطيب من السير في الجزر الى الابلة • فلا يزالون به حتى يرى ان من الرأي ان يغتنم ذلك المد بعينه •

ولم يقف البخل عند مدن معينة ، بل شمل طوائف بأسمائها كالمسجديين وغيرهم وقد افرد الجاحظ لاصحابه من المسجديين فصلا(٢) يذكر فيه بعض نوادر تدل على بخل مفرط • فقد كان منهم من ينتحل الاقتصاد في النفقة والتثمير للمال ، حتى صار هذا المذهب عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب وكالحلف الذي يجمع على التناصر • ويروي الجاحظ نوادر وحكايات ينسبها الى شيوخ من المسجديين، كتلك التي يرويها عن مريم الصناع التي كانت ذات اقتصاد

(١) المصدر نفسه
(٢) البخلاء ٢٤ـ٢٨ •

وصاحبة اصلاح . اما الحكاية التي يرويها عن معاذة العنبرية فتدل على بخل شديد وحرص قوي على الانتفاع بالاشياء التي قد تبدو للبعض انها غير نافعة تماما كما فعلت بأضحيتها عندما وقع كل جزء فيها موقعه .

والواقع انه ليس بالضرورة ان يكون مسجديو البصرة من اصحاب الجاحظ بخلاء بالضرورة ، فقد تكون من اعمالهم ان يقصوا قصص البخلاء ونوادرهم ، لاسيما وانهم اتخذوا المسجد منتدى لهم وطال غشيانهم له فعرفوا به ونسبوا اليه ، وكانوا خليطا من الشعراء والرواة ومصطنعي الحكمة . وكانوا يتداولون فيما بينهم الاخبار ويذيعونها . وقد لايفرق الواحد منهم بفن ولا يقيد بنوع من العلم وانما يصيبون من هذا وذاك ، ثم يجلس بعضهم الى بعض او يجلس بعضهم الى الناس يسامرونهم ويحدثونهم . ويظهر ان كثيرا منهم كان له شأن في توجيه الرأي العام وتعليم الادب . وخير مثال على ما نذكر ابو نواس الذي صحب اهل المسجد والمجان والجاحظ الذي جلس اليهم في اول عهده . مما يدل على ان مسجد البصرة قد اثر تأثيرا كبيرا في الجاحظ ، حتى لقد وصف بأنه « مسجدي » وهذا يعني ان الجاحظ وامثاله كان لهم طابعهم الخاص .

ان الجاحظ لم يذكر البخلاء بعيدين عن اجواء الكرم والجود والبذل والعطاء التي كانت منتشرة في بيئة البصرة .

ويكفي ان نستشهد برسالة ابي العاص(١) بن عبدالوهاب بن عبد المجيد الثقفي في الكـرم(٢) • ويسجل الجاحظ فيها اسباب الكرم وتاريخه ونتائجه ومقدماته ، كمـا يشير الى الكرماءوالاجواد •جاءفيالرسالة:اناللهجواد لايبخل وصدوق لا يكذب •• وقد امرنا بالجود ونهانا عن البخل ••• وقد قالوا : ان الله اجود الاجودين وامجد الامجدين • وذكروا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : لم يضع درهما على درهم ولا لبنة على لبنة ، وملك جزيرة العرب ، فقبض الصدقات وجبيت له الاموال ما بين عذار العراق الى شحر عمان الى اقصى مخاليف اليمن ، ثم توفي وعليه دين ، ودرعه مرهونة ويضيف صاحب الرسالة : ولم تر الامة ابغضت جوادا ولا حقرته بل احبته واعظمته ، بل احبت عقبه واعظمت من اجله رهطه : وهو يرى ان البخيل عند الناس ليس هو الذي يبخل على نفسه فقط ، بل هو الذي كان زاهدا في كل ما اوجب الشكر ونوه بالذكر وادخر الاخـر • والبخيل مخـدوع ومفتون ومضياع ، وماله عرضة للضياع والخوف ، وهـو

(١) البخلاء ١٤١ـ١٥٤

(٢) اعتمد الجاحظ على ما قالته العرب في الثقفيين « اذا رأيت الثقفي يعز من غير اطعام ويكسب بغير انفاق فبهرجه ثم بهرجة ثم بهرجه » وقال ابن ابي بردة : لولا شباب ثقيف وسفهاؤهم ماكان لاهل البصرة مال » •

لا يصنع المعروف ولا يستحي ، ولن يكون له شيء يفتخر به ويقول(١) « ولم نر الأمة أبغضت جوادا قط ولا حقرته بل احبته واعظمته ، واحبت عقبة واعظمت ـ من اجله ـ رهطه . ولا وجدناهم انغضوا جوادا لمجاوزته حد الجود الى الصرف ولا حقرته بل وجدناهم يتعلمون مناقبه ، ويتدارسون محاسنه حتى اضافوا اليه من نوادر الجميل ما لم يفعله ، ونحلوه من غرائب الكرم ما لم يكن يبلغه » .

ثم يقدم الامثال(٢) :

اسخى من لافظة . ألام من كلب على جيفة . الام من كلب على عرق . اجع كلبك يتبعك . نعم كلب في بؤس اهله . اسمن كلبك باكلك . احرص من كلب على عقى صبي. اجوع من كلبة حومل . كل عزيز تحت القدرة فهو ذليل . كل مقدور عليه فمقلو او محقور . لايشبع ابن ادم الا من التراب ويتوب الله على من تاب . السخاء من الحياء والحياء من الايمان . انفق يابلال ولا تخشى من الله اقلال . لاتوكيء فيوكأ عليك . لا تحص فيحصى عليك . لا ينفعك من زاد

---

(١) البخلاء ١٤٥

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٧ .

ما تبقى • اصنع الخير ولو الى كلب • من حقر حرم • لا يمنعك من معروف صغره • مانع الاتمام الام • البخيل ان سأل الحف وأن سئل سوف • ان سئل جحد وان اعطى حقد • البخيل اذا سئل ارتز واذا سئل الجواد اهتز • شر الثلاثة المليم ، يمنع دره ودر غيره • شر ما الجأك الى محنة عرقوب • عند الصباح يحمد القوم السرى • خير مالك ما نفعك • عجبا لفرط الكبرة مع شباب الرغبة • ما أكل ابن عمر وحده قط فلما بلغت الرسالة ابن التوأم كره ان يجيب ابا العاص لما في ذلك من المنافسة والمباينة فكتب رسالة جوابية في البخل وبعث بها الى الثقفي • وفيها يرى ان الدرهم هو القطب الذي تدور عليه رحا الدنيا ، ويحذر من اخراج الدرهم حتى يرى الانسان مكانه خيرا منه • ويذهب الى انه لاينبغي ان ننظر الى كثرته فان الرمل لو اخذ منه ولم يرد عليه ، لذهب عن آخره • وقالوا في الامثال : الكد قبل المد • الغزو ادر للقاح واحد للسلاح • ساعة لدنياك وساعة لاخرتك • وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انهاكم عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال • وقال : خير الصدقة ما ابقت غني • وقال اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول • وقال : امسك عليك مالك • وقالوا في الامثال : خير مالك ما نفعك • خير الامور اوساطها • عليك بالسدادوالاقتصاد ولا وكس ولا شطط •

بين المنحة والعجفاء • لاتكن حلوا فتبتلع ولا مرا فتلفظ • لبس العري عن الكشاف • ياعاقد اذكر حلا • الرشيف انقع للضمآن • القليل الدائم اكثر من الكثر المنقع • الشحيح اعذر من الظالم • ليس من العدل سرعة العذل • لعل له عذرا وانت تلوم • رب لائم مليم • رب ملوم لا ذنب له • اعطاء السائل تضرية واعطاء الملحف مشاركة • وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : لا تصلح المسألة الا في ثلاث : فقر مدقع وغرم مقطع ودم موجع • اذا جد السؤال جد المنع • احذر اعطاء المخدوعين وبذل المغبونين ، فان المغبون لامحمود ولا مأجور • لا تكن ادنى العيرين الى السهم • الفرار بقراب اكيس • من احتاج اغتفر ومن اقتضى تجوز • رب اكلة تمنع اكلات ، ورب عجلة تهب ريثا • لا تطلب اثرا بعد عين • عش ولا تفتر • املا جبك من اول مطرة • دع يريبك الى ما لا يريبك • خير مالك ما نفعك • لم يذهب من مالك ما وعظك ••••• الخ •

وكما هو واضح فان الرسالتين متناقضتين ومتضادتين، ولكل كاتب موقف يريد ان يظهره ويبرزه ويعلن عنه ، ويحشر له الاساليب التي استطاع ان يحشرها من شعر عربي وايات كريمة واحاديث نبوية وامثال وحكم وما الى ذلك • مما قد يدل على ان الكرم والبخل كانا موقفين يختار الفرد

احدهما ويسلك سبيله وهو مؤمن به ، واثق من الفعل الذي يفعله لذلك نرى الكتاب وقد حفل بمعجم خاص للكرم والكرماء وللبخل والبخلاء .

واذا كنا قد عرفنا بعض البخلاء الذين ولدوا او نشأوا في البصرة او وفدوا اليها وماتوا بها ، فاننا نستطيع ان نتتبع الكرماء والاجواد البصريين كذلك ، من مثل : ثوب بن شحمة العنبري(١) الذي عاصر حاتم الطائي ويضرب به المثل في الجاهلية بالكرم حتى لقب بـ « مجير الطير »(٢) على اعتبار انه كان سيدا شريفا كريما تفد الطيور الى بلاده لتأكل من خيره ولم يكن يسمح باصطيادها . ويقال انه طلق امرأته الهمدانية لانها بخلت في يوم من الايام فخاف ان يأتي البخل في عقبها . ومثله : كعب بن امامه(٣) الرجل الكريم الذي بذل واعطى حتى اعطبه الكرم . وبذل ما يملك حتى ساوى حاتما . وعروة بن الورد(٤) الصعلوك الجواد الذي كان اذا اصابت الناس سنة شديدة ، تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ، فكان عروة يجمع هؤلاء ثم يحفر لم الاسراب ويكنف عليهم الكنف . فمن قوي منهم خرج به معه

(١) البخلاء ص ١٢٤
(٢) المصدر نفسه ص ٢١١
(٣) البخلاء ص ١٤٤
(٤) المصدر نفسه ١٦٧

فأغار . وعبدالله بن جعفر(١) الذي يمثل ترف اهل الحجاز من الهاشميين وكان جوادا معدودا في اجـواد الحجـاز . وعبدالله بن جدعان(٢) الذي كان يضرب المثل بجفانه التي كان يأكل منها الراكب والقائم والقاعد . يؤثر عنه انه نقل عن الفرس طعام الفالوذج ، فكان يضعه بمكة ويطعمه الناس .

واذا كان الجاحظ قد ضرب المثل في هـؤلاء الكرماء ولم يكونوا من البصريين ، فانه ضـرب المثـل في كـرماء بصريين من مثـل : ابو العـاص بن عبدالوهاب الثقفي(٣) صاحب الرسالة المشهورة التي يسجلها الجاحظ في الكتاب ، وفيها يذكر محاسن الكرم ويحث الناس فيه ويدعو اليه . وهو سري من سراة البصرة ومن اعرق اسرها . وقد وصفه النظام بأنه « احلى من امن بعد خوف ، ومن خصب بعـد جدب وغني بعد فقر ، توفي بالبصرة سنة ١٩٤هـ . والنمر ابن تولب(٤) الذي يقال انه هاجر الى البصرة ودخل المربد . وكان شاعرا مثل حاتم الطائي وكان يشاركه في الجود واتلاف الاموال واريحية الطبع والتغني بالشعر ، وبشر بن مروان ابن الحكم وهو اموي ولي الكوفة .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٧٦
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٠
(٣) المصدر نفسه ١٤١
(٤) المصدر نفسه ص ١٥٠

وقد كان مجلسه بالكوفة ثم بالبصرة ، بعد ان ولـي المرية في الاولى واضيفت اليه الثانية ، من الاندية الرحبـة التي تتسع للشعراء من امثال : جرير والفرزدق والاخطـل واعشى بني شيبان وسراقة البارقي وغيرهم • وكان كريـم النفس يغدق على الشعراء • وكان يسر عندما يشهد الوانا من المناظرة الادبية •

ويدخل في هذا النطاق الزهاد ، لان الزاهد اخو الكريم • ويمكن العثور على بيئة غنية لزهاد البصرة في كتاب البخلاء ، ويستشهد الجاحظ بعدد كبير منهم • ويظهر ان هؤلاء قد خبروا الحياة وتمكنوا من ان يتخذوا موقفا من اللهو والعبث والمجون • ومن اكبر زهاد البصرة على الاطـلاق ، الحسن البصري وعامر بن عبد قيس وبكر بن عبدالله المزني ويزيد ابن ابان وعمرو بن عبيد وغيرهم •

اما الحسن البصري فلعله احد الرجال القلائل الذين كانوا بعيدي الاثر في البصرة ، وفي اثارة الحركات العقلية ، وفي تهيئة الجو الديني والادبي فيها ، ويبدو انه كان صاحب شخصية قوية وعقل كبير وأفق واسع • كما كان ذا قدرة خطابية بحيث جمعت الناس حوله وكان ذا حجة بالغة فصيح العبارة قوي اللغة وصفه الجاحظ بانه « اخطب الناس صاحب

العمامة السوداء بين اخصاص البصرة(١) » وكانت له حلقة يجلس فيها ضروب الناس واصناف العباد يحدثهم ويدرسهم ويعلمهم • وكان قاضي البصرة ، ووصفه الخليفة عمر بن عبدالعزيز بانه سيد التابعين وشيخ الزهاد • وقد كان يقال: هو ازهد الناس الا الحسن وابين الناس الا الحسن وأفقه الناس الا الحسن • ونقل عن ابي شعيب قوله : الحسن خير لاهل البصرة من الجزر والمد ، والمد هو حياتهم ، يأتيهم فيقف على ابوابهم ، فأن شاؤا حجبوه وان شاءوا اذنوا له • وقد ظل الحسن يمثل ارفع مكانة في البصرة وظل اسمه مثالا يحتذى ، واظهره الجاحظ بصورة الواعظ الذي يدعو الى عدم الاسراف • واذا كان لابد منه ففي « الماعونين: الماء والكلاء »(٢) وعدم التبذير قط لانه مضيعة للمال حيث يقول(٣) « اذا اردتم ان تعرفوا من اين اصاب ماله فانظروا في اي شيء ينفقه ، فان الخبيث ينفق في السرف • وكان يحث على المعروف بالصدقة ، ويقول(٤) : ما نقص مال قط من زكاة • وهو يدعو الى الاعتدال في المأكل والمشرب

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٢١٢
(٢) البخلاء ص ٢
(٣) المصدر نفسه ص ١٠
(٤) المصدر نفسه ص ٢٢

ويقول(١) : يا ابن آدم ! كـل ثلث بطنك واشـرب في ثلث بطنك ، ودع الثلث للتفكير والتنفس » وكان الرجل كريما سخيا باذلا لما يملك ، حتى قالوا(٢) : ما اكل الحسن وحده قط ومن الزهاد الذين اخرجتهم البصرة عامر بن عبد قيس • وذكـره الجـاحظ وردد اسمه ، واعتبره من اهل الزهد والبيان • وقد انكر على عثمان امره وسيرته • وعندما خرج الى الشام ، انكر في الشام ما انكره في العراق من مظاهـر اللهو والبعد عن حقائق الدين • وقد ظل يمثل اعلى درجات الزهاد الذين ظلوا على فطرتهم الاعرابية البدوية •

ويمثل بكر بن عبدالله المزني(٣) انموذجا للزاهد المدني الحضري ، فقد كان زاهدا رقيق القلب وهو مـن اصحاب الحسن البصري • وكان البصريون يقولون : الحسن البصري شيخ البصريين وفتاها بكر • وقد جعله الزهد وطول التأمل، نير البصيرة خبيرا بادواء النفوس، فمضى يعض الناس ويهذب النفوس ويقمع الغرائز • وكان على زهده يتميز بعدم اظهار الفقر ، ويتأنق في لباسه ولا يعبأ بما ينفق عليه ، مما يدل على رحابة نفسه وسعة افقه • وهو يدعو فيما سجله الجاحظ الى

---

(١) المصدر نفسه ص ٩٧
(٢) المصدر نفسه ص ٥
(٣) المصدر نفسه •

الاعتدال في المأكل والمشرب وفي ذلك(١) يقول : (يابني ! والله ما ادى حق الركوع ولا وظيفة السجود ذو كظة (بطنه) ، ولا خشع لله ذو بطنه . والصوم مصحة والوجباب عيش الصالحين) .

ومن الزهاد البصريين المعدودين يزيد بن ابان(٢) احد زهاد البصرة وخطبائها . وهو خطيب من خطباء المسلمين . وكان قصاصا مجيدا ، وقد يعود هذا الاتجاه الادبي الى اثر الوراثة الفارسية . فكان مجلسه يحفل بالحديث عن اخبار الامم الماضية . ولعله كان يعتمد اختيار القصص الذي يدخل فيه الوعظ مما يدل على عاطفته الدينية القوية ، رغبة منه في التأثير والقصد وقد اتهم في قصصه واحاديثه ومجالسه ، حتى قال فيه احدهم : لان اقطع الطريق احب الي من ان اروي عن يزيد ، ويقول مرة اخرى : لان ازني احب الي من ان احدث عن يزيد الرقاشي . وقد وصف بانه رقيق العاطفة حاد الشعور .

اما صفوان بن محرز(٣) فكان ناسكا زاهدا من اهل البيان مات سنة ٧٤ هـ وهو بصري تميمي . وقد ذكره الجاحظ في باب الزهاد والنساك والبكائين الخاشعين

---

(١) البخلاء ص ٩٧_٩٨

(٢) المصدر نفسه ص ٦

(٣) المصدر نفسه ص ٥

العابدين • وتنطبق هذه الاوصاف على عمرو بن عبيد(١) • وهو من اصل فارسي • كان ابوه نساجا ، ثم تحول شرطيا، او حارس سجن • وقد نشأ عمرو في حلقة الحسن البصري، وتأثر بجو الزهد والنسك الذي كان يحيط به • وعندما واصل مجلس شيخه الحسن اعتزل معه عمرو ، وكونا معا فرقة المعتزلة • وكان اثره كبيرا بما كان يتمتع به من شخصية مترفعة وسمعة جليلة وزهد اصيل •

وهكذا ظهر الزهاد والعباد والصالحين في كتاب الجاحظ وقد تأثروا ببيئة البصرة واثروا فيها • وقد وضعهم الجاحظ في الصف المقابل للبخلاء ليصنع الموازنة ويقيم الدليل على ان البصرة لم تكن بيئة بخلاء فحسب ، وانما هي بيئة زهد وتبتل ، وانها تمكنت من تقديم صورة مشرقة لبيئة التقوى والورع والصلاح •

بيئة الرواة والقصاص

انعكست بيئات البصرة المختلفة على الجاحظ وكتبه ، ولا سيما كتاب البخلاء ولعل اوضح هذه البيئات بيئة الرواة التي كان من مهام افرادها نقل الاخبار والانساب والفتوح والمغازي والسير والادب والقصص والشعر واللغة، وما الى ذلك • وربما جاءت بيئة الرواة في كتاب واحد كالبخلاء عرضا ولم يقصد لذاتها ، ولكن الواقع ان الجاحظ

مثله مثل مئات الادباء والمؤرخين والنسابين والشعراء ومن اليهم ، اخذ العربية والاخبار عن الرواة الاعراب وكان الاعراب بالنسبة للجاحظ ولمعاصريه مصدرا مهما ، وربما ذهب اليهم مثل غيره . وكان اعراب البادية الذين بعدوا عن الحاضرة اوثق الرواة . وقد ظلت هذه الفكرة قائمة في اذهان الذين يتلقون المعلومات عن الرواة ، في حين احس الرواة بهذه النظرة ، وادركوا اهميتهم عندئذ اتخذوا الرواية صناعة رائجة ، واحترفوا الرواية ، حتى اصبحوا من اهم اركان ثقافة القرنين الثاني والثالث الهجريين .

وفي البصرة كان الاصمعي وابو زيد وابو عبيدة من كبار الذين اعتمد عليهم الجاحظ وقد اخذ عنهم روايات واخبارا نجدها مثبوتة في كتابه . وربما صنف بعض العلماء(١) في طبيعة علوم كل منهم ولقد كانت طبقتهم طبقة عظيمة الاهمية والاثر ، بسبب الاستعداد والاجتهاد ومواصلة البحث ، حتى اصبحوا علماء شامخين ، كما اصبح اسم كل منهم على افواه الناس . اما تلاميذهم ممن عاصروا الجاحظ،

---

(١) نزهة الالباء ١٥٢ ، تاريخ بغداد ٤١٤:١٠ ، طبقات الزبيدي ١٨٨

كالمازني والسجستاني والرياشي فقد كانوا يذكرون(١) على انهم برعوا في الاعراب والشعر والرواية ، ونحو ذلك . على انهم جميعا اخذوا علومهم عن الاعراب الرواة ، وكان مما اخذوه اللغة والشعر والحديث والانساب وغير ذلك . ولقد اظهروا عناية فائقة باللغة بخاصة ، وذلك بسبب حرصهم عليها باعتبارها لغة القرآن الكريم .

وكان المجد الادبي لا يتأتى من غنى ويسار ، وانما كان يبدو من اللسان الفصيح . وكما يقول الجاحظ ، فلم يكن ثمة الذ ولا امتع من سماع كلام الاعراب . ومن اشهر الاعراب في البصرة واوائلهم ممن يذكرهم الجاحظ في كتابه ابو الدقيش وابو خيرة وابو المنتجع وابو مهدية وابو الجاموس ثور بن يزيد الذي تلقى ابن المقفع الفصاحة على يديه .

وكان طلاب العلم في البصرة يتعلقون بالاعراب اذا عثروا بهم في طرقها ، وربما اخذ الحديث معهم على شكل الحوار او المشاغبة . وربما احتكم المتخاصمون اليهم . ولكن هذا الطلب على الاعراب لم يدم طويلا ، فعندما بعد الأعراب عن اوطانهم وراحوا يستقرون في المدن او يكثرون المكوث فيها بدأت السنتهم تفقد شيئا من اهميتها ، ومع ذلك فقد

---

(١) معجم الادباء ٧:١٠٧ ، انباه الرواة ١:٢٣٠ ، ٢:٥٨ ، اخبار النحويين البصريين ٧١ ، طبقات الزبيدي ١٠٣-١٠٥ .

ظلت البصرة موئلا للكثير من الوافدين عليها ، وكان بعض الوافدين من فصحاء البدو ، وممن اقر الدارسون بفصاحتهم، فراحوا يتصلون بهم ويأخذون عنهم اساليب اللغة ومفرداتها. على أن بعض الدارسين على الرغم من انهم اختصوا ببعض الوافدين ، فقد اخذوا عن الاعراب بشكل مباشر . وربما عكف بعضهم على ملاحظة اساليبهم في الكلام ، وسجلوا بعض المفردات التي يتفوهون بها ، ومن ثم دراسة هذه الاساليب .

وفي المربد كان يبحث عن الرواة ، ولا سيما الاعراب منهم ، وكانت البادية الفصيحة على مقربة من البصرة . وكان المربد سوقا للابل على بعد بضع كيلومترات منها . يأتي اليها البدوي، ويخرج اليها اهل البصرة يبيعون ويشترون . وبينهم طلاب العربية الذين كانوا يدخلون المربد لتوثيق مايجمعونه وما ينقلونه عن اساتذتهم . وكان الادب يحتل مكانا مرموقا في المربد ككل الاسواق العربية . في حين كان الطلاب يذهبون الى المربد يستمعون الى مايجري فيه من احداث كبيرة ، ويكون من نتيجتها هذا المغنم اللغوي . وفي المربد دارت اكبر معركة ادبية عرفها التاريخ الادبي عندما دب الخصام بين الفرزدق وجرير ودخول الاخطل وسراقة البارقي وغيرهما المعركة بعد ذلك .

ولقد التفت شيوخ البصرة الى اهمية دور المربد في المجال التعليمي ، والى مايمكن ان يؤديه من فائدة في هذا

الميدان ، فكانوا يحضرون المجالس ، ويحثون الطــلاب على الاستفادة من كل جديد وطريف ومثير ، ولا سيما لهجات القبائل ولغاتها واساليبها ، وهذا ينطبق على المجالس الخاصة والمناظرات والمحاورات وغيرها •

ويظهر ان النشاط الادبي في الاسواق كان يتم لاشباع النزعة الفنية وللدفاع عن القبيلة والنيل من اعدائها والتشهير بمن جاء منهم بعمل غير لائــق • وكان يدخله اهل الحضر لارضـــاء النـــزوع الادبـــي وســـماع القصائــد والالفاظ ومخارجها ، وبالتالي تدوينها • وكان الجاحظ(١) نفسه احد من تلقف الفصاحة من العـــرب شفاها بالمربد • وتعرف فيها على الاعــراب الرواة • وكـــان من نتيجة ذلك ان اشاع في كتبه ، ولا سيما البخـــلاء ، بعض الاسماء التي وجــد ان تسجيلها في الكتب ، يجعل منها وثائق مهمة • ومن الاسماء التي اوردها الجاحظ في كتابه من الرواة الاعراب(٢) : عمرو ابن كركرة ، وابو القماقم وخاقان بن صبيح والمنتجع بـــن نبهان وغيرهم • اما عمرو بن كركرة(٣) فقد كان على صلة مع

(١) معجم الادباء ١٦:٧٥

(٢) البخلاء انظر صفحات : ١٣ ، ١١٢ ، ٢٠٥

(٣) انظر ترجمته في الفهرست ص ٦٦ ومعجم الادباء ١٦:١٣١، وانظـــر كذلك : الاعراب الـــرواة / د•عبدالحميـــد الشلقاني ، طرابلس الغرب : الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان ، ١٩٧٥ ، ص ٢١٢ •

ابن ابي كريمة الذي يذكره الجاحظ ، كما كان على صلة مع من ينزل عنده من الاعراب ، ولا سيما اولئك الذين ينظمون القصائد في وصف الحيوانات . وكان بعضهم يعمل بالبادية وكان البعض الاخر يحفظون لغة العرب . واما ابو القماقم(١) الاسدي فقد كان صاحب نوادر ورواية وشعر . روى عنه الكسائي واختار له ابو تمام بعض الشعر . اما الجاحظ فقد روى له بعض النوادر في البخل والطمع . وعندما يذكر خاقان بن صبيح(٢) فان اول ما يتبادر الى الذهن هو المشاهدات والعبارات التي كان يرويها الجاحظ عنه او ينقلها

اما المنتجع بن نبهان(٣) فينقل عنه الجاحظ اخبارا عن البادية . وتدل المصادر على انه كان من رواة الاصمعي ، وكان ينقل عنه اللغة . كما روى عنه ابو عبيدة معمر بن

---

(١) انظر : انباه الرواة ٤:١١٥ والبيان والتبيين ٢:٣١٦، ٣:٣٠٢ ، ٤:٨٥.

(٢) البخلاء ص ١٥ .

(٣) البخلاء ص ٢٠٥ ، البيان والتبيين ٢ : ٢٢١ ، مجاز القرآن ١:٤ ، النقائض ٤٨٧ ، طبقات النحويين واللغويين ١٨٩ ، امالي القالي ١:١٣٢ ، الاعراب الرواة ٢٣٣،٢٣٥.

المثنى وكان ناقدا عالما بالانساب ، وقد خرج الى البادية وهو صبي ، فرجع افصح من رؤبة • وقد روى عنه ابن السكيت• ولعل في هذه الروايات ما يدل على ان الجاحظ وامثاله قـد اعتمدوا بشكل مباشر على الاعراب ، او على من سمع مـن الاعراب •

والواقع ان المـربد لم يكن المكان الوحيـد لالتماس العربية الخالصة ، فكان على كثير ممن اراد هذا الامـر ان يتجه نحو البادية البعيدة عن الاطـراف ، حيث لا اغتراب لاهلها ، ولا سمح للغريب بالاقامة فيها اكثر من ثلاث ليال • والى البادية رحل الخليل بن احمد ، وابوعمرو بن العلاء ، وابو زيد سعيد بن اوس الانصاري والاصمعي وغيرهم •

ومع ذلك ، فلم يكن المربد ، فضلا عن البادية المصدر الاول للرواية او تلقي العلم ، فقد كان شيوخ البصرة يمثلون الطبقة المثقفة المستنيرة من المجتمع بحكم مراكزهم العلمية وممارساتهم للتعليم • وكان الكتاب هو المعهد الاول الذي يتردد عليه المتعلم فيتعلم فيه مبادىء القراءة والخط والحساب وبعض العلوم • ويبدو ان البصرة قد كثرت فيها الكتاتيب حتى قيل انه كان يوجد في احد الكتاب حوالي ثلاثة آلاف صبي ، كما يقول ياقوت الحموي(١) • وقـد حفلت بعض

(١) معجم البلدان : ٤ : ٣٧٢ ـ ٣٧٣

المصادر باخبار المعلمين الذين اقاموا بالبصرة ، وكان بعضهم من الوافدين الاعراب الذين ما لبثوا ان اصبحوا شيوخا للعلم .

كما لعب المسجد في البصرة دورا رئيسا ، وكان العلماء والدارسون يلتقون فيه حيث كان ملقاهم ومنتداهم . وكان مسجد البصرة اهم المساجد العباسية واكبرها . ولم يقتصر دوره على التعليم فحسب ، بل كان منتدى للقصاص والوعاظ . وكان بعض الطلبة يختصون بحلقات دينية كما كانوا يلازمون شيخا معينا ، حيث يلازمونه ولا يفارقون مجلسه .

اما الاسواق التي اقيمت لاغراض تجارية وتحولت فيما بعد الى ميادين للتفاخر وحل المنازعات ، فقد شهدت تحولا آخر كان يتمثل في انشاد الشعر ونقده . وهذا يعني ان الاسواق قد ادت مهام تعليمية تماما مثلما فعل العلماء عندما كانوا يقصدون المربد بالبصرة بهدف التعلم من الاعراب والعلماء . وكان الناس يجتمعون للسماع والانشاد مفاخرين او مادحين او هاجين ، كما كان بعضهم يعمل على اثارة المنازعات واثارة الخصام بين الاطراف المتنازعة .

ولقد دخل القصص في عداد المواد المروية . وعلى الرغم من ان بعض الرواة الاعراب قد ابتعدوا ، بسبب ظروف

حياتهم الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية عن اجواء الرواية الدينية التي تعتمد اسلوب القصص ، بصرف النظر عما كانت تحويه القصص ، سواء أكانت معنية بالتفسير الديني الـذي يتخذ القـرآن اساسا له ام التفسير الاجتمـاعي الذي يتخذ احداث المجتمع مادة له ، على الرغم من هذا كلـه ، الا ان الرواة قد دخلوا في هذا المجال ولاسيما عندما اصبحت رواية القصص تجارة رائجة ، ولها بيئتها واسلوبها ورجالها الذين احترفوا هذه التجارة •

واذا انتقلنا الى بيئة القصاص والرواة نلاحظ اول مـا نلاحظ ان هناك فـرقا واضحا بـين وظيفة كل من القاص والراوي فالقاص الذي ينشىء الحكايات المؤثرة يعتمد عادة على سذاجة الجماهير لاثارة عواطفهم وقد ذكر الجاحظ عددا من القصاص الذين تنسحب عليهـم الصفة الشعبية وطلاقة اللسان وجمال الاسلوب • ومن القصاص والزهاد والنساك الذين اشار اليهم المؤلف عامر بن عبد قيس(١) الـذي عده شارل بلات من ضمن ثمانية اشخاص ثلاثة منهم بصريون هم عامر هذا ، وهرم بن حيان والحسن البصري ، الذين جمعوا بين النسك والـوعظ الشعبي والقصص الديني والشعبي ،

---

(١) البخلاء ص ٥ ، وانظر طه الحاجري ٢٣٩ وشارل بلات ١٤٢ •

وتراوحت اهتماماتهم بين تفسير القرآن الكريم والوعظ وبين انشاء القصص الهادف الذي يتصل بعالم اخلاقي رحب •

ومن زهاد البصرة ونساكها وقصاصها بكر بن عبدالله المزني(١) الذي وصف بانه مدني رقيق القلب وكان لصيقا بالعامة من البصريين ، حريصا على علاقاته بهم ، واسع الصدر لهم ، ويرى ان ذلك اجدى عليه في هدايتهم والوصول الى قلوبهم • وعندما رفض القضاء كان رفضه له مبررا اذ يرى ان في ولاية القضاء افسادا لما بينه وبين الناس ، وصدا عن عمله الذي اطمأنت اليه نفسه •

ولم يقتصر هذا الموقف على العرب ، ففي مرحلة متقدمة من حياة البصرة شارك الزهاد والقصاص يزيد بن أبان(٢) الفارسي العريق في فارسيته ، الذي كان خطيبا لبعض الناس، وقصاصا يحدث الناس بالاخبار • وقد تكون هذه الناحية قد انحدرت اليه من اثار الوراثة الفارسية فكان من اهل القصص ، كما كان من اهل البيان يحدث الناس ويستشهد بمواعظ منبثقة من تاريخ اجداده الفرس • يقول شارل بلات: ولعل هذا من الاسباب التي ادت بالمتحدثين الى كرهه على الرغم من روايته احاديث عن كبار المحدثين كالحسن وانس•

---

(١) المصدر نفسه ص ٦

(٢) البخلاء ص ٦ وانظر كذلك : شارل بلات ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ •

وكان يدخله في نطاق القصص التاريخي ، ويشـــير من هذه الناحية الى ابن اخيه الفضل بن عيسى وابنه عبدالصمد .

وربما كثر عليه وعلى عقبه الطعن لاسباب كثيرة ، من ذلك ابـــرازهم لمشاهد القيامة ، واعتمادهم على اكثـــر من اسلوب في القصص كالخطابة والبيان والفصاحة ، الامر الذي وفر لهم جمهورا من المستمعين ، وكانوا جميعا يعتمدون على ثقافة متنوعة . ولم يتوان الجاحظ في ان يسلك عددا منهم في سلك المعوزين الذين يقفون امام ابواب المساجد انتظارا للصدقات ، وكانوا عرضة لغضب ذوي الشأن الذين كانوا يرون في هؤلاء وافعالهم خطورة في القصص الذي تتداوله العامة ومن القصاص الذين يدخلهم الجاحظ في هذا النطاق ابو كعب الصوفي(١) ، الذي اورده عندما عـــرض للزهاد والوعاظ . وهو يمثل طـــورا مختلفا من اطـــوار القصص والقصاصين ، لانه تخصص بهذه الصناعة ، واقترن القصص بالسؤال والاستجداء حتى لقد سلكهم الجاحظ مع القرادين. وكان ابو كعب الصوفي وامثاله يروون من الاشياء ما يتندر بها الناس ويتضاحكون منها ، كما كانـــوا يتخـــذون العبث والسخرية والتندر مادة رائجة لاضحاك الناس والتأثير عليهم

---

(١) البخـــلاء ص٦

بما لايفيدهم او بما لاطائل من ورائه • وكان الى جانب هذا وذاك يحفظ النوادر ويتندر بها ويضحك منها •

ومن القصاص الماهرين في هــذه الصناعة عبد الاعلى القاص(١) ، وهو احد القصاص الــذين كانــوا يحترفــون القصص في عهد الجاحظ • وقد ادهشه باشتقاقاته الغريبــة وحكمته الموجزة • ويروي الجاحظ له بعض المواقف المثيرة الممتعة ، فكان « اذا قيل له : لم سمي الكلب قلطيا ؟ قال : لانه قل ولفى • واذا قيل له : لماذا سمي الكلب سلوقيا قال : لانه يستل ويلقي ، واذا قيل له : لم سمي العصفور قال : لانه عصى وفر » وهذا يعني ، كما هو واضح ، ان القصاص كانوا يعمدون الى بعض الالفاظ فيشــرحونها على طريقتهم الخاصة ، كما كانوا معنيين باحاطة اجواء القصص بما يطرف الجمهور ويمتعه ، ويجعله اكثر ارتباطا بحلقات القصص •

ومن القصاص الذين اخذ عنهم الجاحظ او روى لهم مطرف بن الشخير(٢) الذي ولد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ووصفه الجاحظ بانه كان يضرب به المثل في العقل• وكان قاصا ، يمثل القصص بمعناها الاول ، حين كان الغرض منه ارهاف العاطفة الدينية في عالم مضطرب لايستقر على حال

---

(١) المصدر نفسه ص ٩٤ وانظر شارل بلات ص ١٦٦ •

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٥ وانظر شارل بلات ص١٦١ •

من الملابسات • فقد كان يمثل اولئك الذين يحفظون القرآن ويقرأونه في المساجد ويتقنون الفصاحة والتفسير • ولعل الجاحظ كان معجبا بهذه الطبقة من ناحيتين : اتقانهم لكتاب الله وسنة رسوله واللغة العظيمة وقدرتهم على القص المتقن• لذلك نراه يهتم بهم ويورد قائمة باسمائهم •

وهذا يعني ان الجاحظ قد اختلط بهذه الفئة وافاد من اهلها وتزود من تجاربهم • ولعلهم عنده قسمان : قسم افاد من تعاليمهم في مطلع شبابه يدلنا على ذلك ما كان من امر استشهاداته باقوال عدد كبير منهم ، وقسم اسهموا في تكوينه الديني ، وفتحوا قلبه على قضايا كثيرة تكونت منها حصيلة عقليته الاسطورية والخرافية والاخبار العجيبة ، الامر الذي انعكس على كثير مما نشره في كتبه •

وعندما تتناول رواة الجاحظ نلاحظ اول ما نلاحظ اهتمامه بهم ، واعترافه بفضلهم عليه • حتى يمكن القول بأن معظمهم كانوا من اصحابه وهذا يعني انه عاصرهم وجلس اليهم واخذ عنهم وتمكن من ان يفصل ما بين الروايات الصحيحة والروايات الكاذبة المنتحلة •

وهكذا نلاحظ ان للرواة بيئة متفردة كان من مهام افرادها نقل الاخبار والانساب والفتوح والمغازي والسير والادب والقصص والشعر واللغة • وقد اخذ الجاحظ هذه

المصادر عن الرواة الاعراب ، الذين اتقنوا الصناعة واحترفوا الرواية •الى جانب هؤلاء ، اخذ الجاحظ عن رواة كبار •وكان للمربد دور واضح في حياة الجاحظ وحياة البصريين ولاسيما في مجال الادب والتعليم والمجالس والمناظرات وغير ذلك • كما ظهرت للبادية اهمية في حياة البصريين • وانتشرت فيها الكتاب والمساجد والاسواق •

وظهر في هذه البيئات رواة للقصص الذين كانوا ينشئون الحكايات المؤثرة التي كانت تعتمد على سذاجة الجماهير لاثارة عواطفهم • وكان منهم من جمع بين النسك والوعظ الشعبي والقصص الديني ، وتراوحت اهتماماتهم بين تفسير القرآن الكريم والوعظ وبين انشاء القصص الهادف الذي يتصل بعالم اخلاقي رحب •

وكان بعض القصاصين يحدثون الناس بالاخبار والتاريخ ويسوقون المواعظ • وكان بعضهم يخلط بين الواقع والخيال ، ويفسرون بعض الايات الكريمة من خلال مخزونهم الخرافي والاسطوري لتقريب بعض العقول الى اقرب الصور الى عقولهم • وقد سلك الجاحظ بعضهم في سلك المعوزين الذين يقفون امام ابواب المسجد انتظارا للصدقات • في حين سلك بعضهم الاخر مع القرادين • ولقد اختلط بهذه الفئة وافاد من اهلها وتزود من تجاربهم ، بل انه يعترف بفضل بعضهم ولا سيما المعاصرون منهم •

اما في مجال الرواية فقد روى الجاحظ عن عدد كبير منهم ، وكان للرواية نظام خاص عنده . والرواة عنده فئات، والرواية درجات . وكان يلتقط معظم رواياته واحداثه من الاسواق والساحات . وكثرت الرواية عنده حتى فاقت المتوقع . وقد اختلط مفهوم القصاص والرواة الذين اعتمد عليهم الجاحظ وتداخلت الرواية الدينية مع الرواية الادبية والتاريخية . وقد توحي لنا سلسلة الرواة ان الرواية اصبحت فنا . ومع ذلك فقلما يتمكن الباحث من التفرقة بين الرواية الشعبية الشفهية التي كانت شائعة في عصره والرواية الجماعية للظاهرة الشعبية .

ويذكر الجاحظ من رواته ابو الاصبع بن ربعي(١) الذي كان من اصحابه الذين يروي عنهم . وهو هذلي بصري ، وكان من فتيان البصرة الظرفاء الخلصاء ، كما كان من الكرماء . ومنهم احمد بن خلف(٢) ، احد أصدقاء الجاحظ الذي لم يتورع في وصفه ونعته واستخدام اسمه في الجدال والخصومات . وعبدالله العروضي(٣) الذي كان من اصحابه الذين يتحدث اليهم ويروي عنهم ولو انه كان معدودا في البخلاء ، وعثمان الشحام وعمرو بن نهيوي ،

(١) البخلاء ص ٢٩
(٢) المصدر نفسه ص ٣٩
(٣) المصدر نفسه ص ٤٩

وموسى بن عمران ، وابراهيم السندي ، وابراهيم بن سيار النظام والحارثي ، واسماعيل بن غزوان ، ومحمد بن ابي المؤمل ، والخليل السلولي ، ومحمد بن حسان الاسود ، وابو طالب المكي ومن اليهم وهم كثيرون .

والواقع ان الرواية عند الجاحظ لها نظام ويمكن تتبع نظامها وفحص اسلوبها من خلال كتاب البخلاء ، والرواية عنده درجات ، وتبدأ عادة بأسلوب المباشرة ، اي ان يستمع الجاحظ نفسه الى الراوي . وفي هذه الحالة يكون الاسلوب: حدثني ، اخبرني ، سمعت ، فلان .... ويتنوع هذا الاسلوب من رواية الى اخرى ، ولكن النتيجة تكون واحدة . وفي حالات اخرى يلجأ الجاحظ الى اسلوب قال ، وقال ذات مرة . وحتى يؤكد الجاحظ الواقعة يستشهد بمن كان واقفا او كان رافقه ، كأن يقول : زرته انا وفلان . او انه رآني وأنا ....

وما يلبث الجاحظ ان ينوع اسلوب الرواية . ويلجأ الى التأكيد بطريقة فريدة قلما نجد لها نظيرا كأن يقول(١) : حدثني الحزامي والمكي والعروضي قالوا : وكذلك حدثني جعفر ابن اخت واصل ولا سيما عندما يود توثيق روايته ، في حين كان لا يأبه كثيرا عندما يروي بعض المرويات ، كأن

---

(١) البخلاء ص ١١٨

يقول : حدثتني امرأة لا اعرف اسمها ، وقال آخر .. في حين لا يأبه كثيرا لمصدر الخبر ، كأن يقول(١) قال الاصمعي او غيره ... مما قد يدل على انه لم يكن يهتم كثيرا بمصدر الخبر ، ان وجد فيه مادة جيدة لكتابه ، ومع ذلك فقد ضبط الايات الكريمة والاحاديث واقوال الرسول ، وقدم لنا الشعر منسوبا الى شعرائه حينا وغير منسوب احيانا اخرى .

ولان الجاحظ قد روى بعض احداثه عياناً ، والتقط معظمها من الاسواق الشعبية والساحات العامة ، فلم يكن مطالبا ان يذكر رواته جميعهم . ومع ذلك ، نراه في بعض الاحيان وقد استخدم اسلوب حدثني صاحب حانوت ... خبرني خباز لبعض اصحابنا(٢) ، كما كان يعتمد الخبرة والدربة والمعرفة بالامور ، كأن يقول حدثتني امرأة تعرف الامور ... وهكذا .

وسلك الجاحظ في توثيقه للروايات مسالك شتى ، فكان اذا لم يجد من ينسب اليه الخبر يسلك اسلوب التعميم ، كأن يقول(٣) وزعم اصحابنا ان خراسانية ترافقوا في منزل .... او يقول(٤) : مثل هذا الحديث ما حدثني

(١) المصدر نفسه ١١٠
(٢) المصدر نفسه ص ٤٨
(٣) البخلاء ص ١٤
(٤) المصدر نفسه ص ٢١

به •••• عن وال كان بفارس بل انه يذهب الى مرتبة الشك عندما يقول(١) : وليس هذا الحديث من حديث المراوزة ، ولكنا ضممناه الى ما يشاكله •

بيد انه لايترك رواياته تسير على وتيرة واحدة فنراه مرة يكون شاهدا على الحدث كأن يقول(٢) : ورأيت انا حمّارة منهم ••• او يقول : حدثني صاحب لي قال(٣) : دخلت على فلان بن فلان ••••• او(٤) حدثني صاحب مسلحة •••• (٥) او صديق لنا اخر كنا قد ابتلينا بمؤاكلته ••• وهذا يعني ان الجاحظ قد استخدم اساليب الرواية كافة في سبيل جمع مادة كتابه ، وتوثيق هذه المادة بحيث تصبح قادرة على تحقيق غايات الكتاب واغراضه •

ولعل بما اوردنا ما يدل على ان الجاحظ قد اعتمد على الرواية اعتمادا قويا ، فضلا عما قدمه من ملاحظات شخصية وبحث ذاتي • الا ان مروياته في هذا الكتاب قد فاقت المتوقع او المقبول ، مما يجعل هـذا الكتاب عرضـة للادعاء بان الجاحظ لم يضف جديدا ، وانما نقل روايات الاخرين لتخدم

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٣
(٢) المصدر نفسه ص ١٤
(٣) المصدر نفسه ص ٣٧
(٤) المصدر نفسه ص ٣٧
(٥) المصدر نفسه ص ٤٨

كتابـه ، وبالتالي فقد اصبح هـدف الكتاب هـدفا ثقافيا عاما يحاول فيه الجاحظ ان يوفر مناخا في الترفيه والتسلية • على انه اذا كان اخلص في تحقيق الغرض العام للكتاب فقـد تميز بقدرته على توجيه الرواية لخدمة اغراضه • وخير مثال على ما نذكر هو قدرته على جمع الـروايات المتشابهة لخدمة الفكرة الواحـدة • ومع ذلك ، فقـد كان يتدخل بالتعليق والشرح موضحا وجهة نظره المباشرة وملاحظاته الشخصية •

حيـاة البصريين وصناعاتهم وحرفهم

صور الجاحظ الوسط الاجتماعي احسن تصوير ، كما صور اخلاق الناس وممارساتهم اليومية وصناعاتهم التقليدية وحرفهم المتـوارثة • ولم يخف على المؤلـف ان الـواقع الاجتماعي عنصر مهم في التطور الانساني • وهذا يعني انه لايقف عند طبقة في المجتمع ، او فئة من الناس ، ولا يلتفت كثيرا من هذه الناحية الى الماضي ، وانما يعنى بتصوير الحاضر بما فيه • ومع ذلك ، فالجاحظ كـان يعتمد في مؤلفاته على كثير من الرواة ، من اجل ان يثير اعجاب النقاد والعلماء ، وليجعل كتاباته اكثر وزنا وقوة وفعلا •

واول ما يلاحظ بهـذا الشـأن هو تشعب الصناعات والحرف بالبصرة ، وأثر البيئة فيها ، فضلا عن تأثير الشعوب والامم ومحاولة كل امة طبعها بطابعها المميز • وما من شك في ان الصانع البصري قد انتـج ادواته وما تحتاجه هـذه الادوات سواء أكانت ادوات منزلية ام مهنـة يعتاش منهـا بالبيع من بيئته الخاصة به • وكان للبصرة ميزة خاصة مـن

هذه الناحية فقد اعتمدت على نفسها في توفير المواد الاولية تمهيدا لقيام صناعات وحـرف ما لبثت ان دخلت في حيـاة البصريين ، وسجلت في ادبهم ، ليصبح لها المعاني الخاصة والدلالات الواضحة •

ومن السهولة بمكان التعرف على ثقافـة الجاحظ التي اخذها من القطاع الواسع الذي تشغله الحياة الشعبية لمصدر من مروياته • وربما كان اهتمام الجاحظ بالحيـاة الشعبية يشكل معلما واضحا من معالم شخصيته الفنية • وعلى الرغم من ان الجاحظ قد دخل معترك الحياة الارستقراطية ، وحاول اثناءها ان ينسى نشأته ومسقط رأسه ، الا ان هذه الحالة عنده لم تدم طويلا ، فسرعان ما عاد ادراجه اليها ، ولا سيما بعد ان عاد الى البصرة ، وقرر ان يستقر بها

والواقع ان كتاب البخلاء ، اولا وقبل كـل شيء ، مصدر من مصادر الحياة الشعبية والبيئة التي انحدر منها • وقد ظلت هذه البيئة تكون حياة الجاحظ • وتحد من قدرته على الاستمرار في الحيـاة الارستقراطية • وهـذا يعني ان صلاته بالمحيط الاجتماعي الاول ظلت تلازمه ولم تنقطع • كما ظلت مروياته الشعبية ذات نكهة خاصة تـلازمه في كل ما كتبه •

ولقد تأكد لنا هذا الموقف عندما ظهرت العامة في هذا الكتاب ، وبرزت الطبقات الاجتماعية ، وانعكست مساهماتها

في حياة المجتمع ، واصبح لها ادوار متميزة • وما من شك في ان مساهمات البدو والاعراب بالنشاط الثقافي قد مكن لبعض الفئـات الاجتماعيـة من أن تحصل على نصيب من الثقافة • ولعل في كتاب البخلاء خير دليل على ما نذهب اليه، ففي هذا الكتاب ما يدل على عناية الجاحظ بكل ما يمت الى الحياة الشعبية بالصلات المتينة • وخير مثال على ما نذكر هو استحضـار الجـاحظ لثقافته الشعبية عندما يتحـدث عن الاضحية(١) ، ثم يذهب بعيدا عندما يتحدث عن امر تدبير لحمها ، على اعتبار ان الله تعالى لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئا لا منفعة فيـه ، فيرى ان اجـزاءها جميعها يمكن ان تستغل • فالقرن يمكن ان يجعل كالخطاف ويسمر في جذع من اجذاع السقف فيعلق فيه الزبل والكيران ، وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنـات وردان والحيات ، وغير ذلك • اما المصران فانه لاوتار المندفة •••••

ويوجه الجاحظ عناية لدورة حياة الانسان • وعلى الرغم من ان الحياة العائلية البصرية بكل ابعـادها غـير واضحة الشكل ، ويكاد التعامل في الكتاب يقتصر على الافراد بعيدين عن حياتهم العائلية ، الا انه يتناول بين الفينة والفينة الحياة

---

(١) البخـلاء ص ٢٧ـ٢٨

العائلية كالدعوة الى الزواج(١) وكسوة الابنــة التي تنوي الزواج(٢) ، وتبدل شكل الصداق من الابل والغنم والتمر (٣) الى النقود •

ولعل اطرف ما يسوقه الجاحظ في مجال الزواج هــو الزواج النهاري(٤) الذي تاول الزوجة من خلال هذا النمط من الزواج ان ترضي زوجها بكل الوسائل الممكنة بما في ذلك الطعــام الشهي • ولــم يفــت الجــاحظ ان يشير الى الوكيرة(٥) ، ذلك الطعام الذي يعمل عند الفراغ من البنيان، والعقيقة(٦) وهي الذبيحة التي تذبح للمولود بأسبوعه عند حلق شعره •

ويمكن للباحث ان يتتبع عناية الجاحظ بالادوات التي يستعملها البصريون يوميــا ، كالمسرجة(٧) ذات الفتيلة التي تضاء بالدهن ، وهي على انواع ، منها مسارج حجارة ومنها مسارج خزف ، وكلا النوعين يحسو الدهن حسوا • ويخص

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٢ـ١٣٣
(٢) المصدر نفسه ص ٢٥
(٣) المصدر نفسه ص ١٩٦
(٤) البخــــلاء ص ١١٢
(٥) المصدر نفسه ص ١٩٥
(٦) المصدر نفسه ص ١٩٥
(٧) البخــــلاء ص ١٥ـ١٦

الجاحظ الحياة اليومية بعنايته ، فأسد بن جانـي(١) يجعل سريره في الشتاء من قصب مقشر لان البراغيث تزلق عن ليط القصب لفرط لينه وملاسته . كما يذكر الملاءة المذارية(٢) والملحفة والطيلسان والجبة والمخاد وقطن القناديل والقلنسوة والقطن المندوف وما الى ذلك .

وما من شك ان الجاحظ قد دخـل البيت البصـري ووصف ما فيه ، وما يتوافر فيه من ادوات تساعد على تلبية احتياجات الساكنين، وعندما يتحدث عن المستويات الاجتماعية المختلفة ، نراه اكثـر ميلا الى وصف ادوات البيت البصري الشعبي ، فاذا كان الاثـرياء يستعملون المرقشيا(٣) المعدن الكبريتي غالي الثمن الذي يقدح بالنار ، فأن الفقراء قـد استعملوا عراجين الأعذاق(٨) ، وهي سعف النخيل التـي يمكـن للطبقات الفقـيرة ان تجمعها دونمـا كلفة ، مثلمـا استخدموا العبطة(٥) ، التي هي عبارة عن الثوب البالي الذي كان يستعمل عند اشعال النار .

اما الزي فيكاد يبدو في اجزاء الكتاب المختلفة واضح المعالم وقد رسم بدقة متناهية ، حتى ان الجاحظ يتحدث عن

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٠
(٢) المصدر نفسه ص ٩٣
(٣) المصدر نفسه ص ٢٧
(٤) المصدر نفسه ص ٢٧
(٥) المصدر نفسه ص ٢٧

ادق تفاصيله ، ولا يترك صغيرة ولا كبيرة الا ويشير اليها •
ولعل الزي اكثر ما استعمله الجاحظ للحديث عن بيئات البخل والبخلاء ، والجوع والفقر والغني والسعادة ، فهو يقول(١): « وان احدهم يجوع حتى يشد على بطنه الحجارة ، وحتى يعتصم بشد معاقد الازار ، وينزع عمامته من رأسه ، فيشد بها بطنه • وانما عمامته تاجه ــ والاعرابي يجد في رأسه من البرد اذا كان حارا مالا يجده لطول ملازمته العمامة ، وكثرة طيها وتضاعف اثنائها ، ولربما اعتم بعمامتين ولربما كانت على قلنسوة خدرية » • ويشير الجاحظ الى العمامة في موضع آخر بقوله(٢) : والعمامة الواحدة تقطع اربعة أزر ، ليس ذلك الا لتعاون الطي ، وترافد الاثناء • اما التطيب فقد كان على اشكال كثيرة • ويظهر ان الشاربين كانا يطيبان ، وكذلك السبلة التي هي الدائرة في وسط شفته العليا • وكانت مادة التطيب الغالية التي كانت تصنع من اخلاط من الطيب كالمسك والعنبر •

ويشير الجاحظ الى الملابس التي كانت سائدة كالبرنكان(٣) ولعله اقرب ما يمكن للعباءة ، بحيث تكون قادرة على ان تلف الجسم كله ، ويرى دوزي انه كان مستعملا في بلاد

(١) المصدر نفسه ص ٢٠١
(٢) المصدر نفسه ص ٩٢
(٣) البخلاء ص ٣٠

المغرب ونقل عن الرحالة صفاته العامة . وقد يكون هذا اللباس قد استعمله البدو في حين استعمله البصريون بصورة اكثر تطورا ولعله قريب من الكساء القومسي(١) ، وهو رداء من الصوف يلف به الجسم كله . وتذكر الجبة(٢) على انها رداء فاخر يمكن ان يبطن ليقي من البرد . كما يشير الى السراويل والمئزر(٣) والقميص وما شابه ذلك ، ولم يذكر الجاحظ العمامة والقلنسوة الا في معرض الحديث عن اللصوص في كتابه الذي لخص جزءا منه في الحيوان(٤) . هذا الى جانب اشارته الى لبس الخواتم(٥) وما الى ذلك . في حين كان المشط يتخذ من خشب الصندل طيب الرائحة ويقول الجاحظ (٦) : فان ريحه طيبة ، والشعر سريع القبول، وأقل ما يصنع انه يقي سهك الشيب « اما النعال والخفاف فلها ذكر موفور . والنعال منسوبة الى بلاد السند ، فيقال النعال السندية »(٧) ، في حين ان الخفاف لاتظهر لها نسبة .

وللطب الشعبي نصيب في كتاب الجاحظ باعتباره من

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٢
(٢) المصدر نفسه
(٣) المصدر نفسه ص ٣٧
(٤) الحيوان ٣:٤٠٩
(٥) المصدر نفسه ٤٣ ، ٧٩
(٦) المصدر نفسه ص ٥٣
(٧) المصدر نفسه ص ٩٢

اكثر الممارسات التصاقا بالحياة الشعبية ، فالشرب على الريق يقتل الديدان(١) والصبحة تغسل الاوضار وتنفي التخم ... والفانيد السكري او الخزيرة ، التي تتخذ من النشاشج والسكر ودهن اللوز ، واشباه ذلك ، يشفي من السعال . في حين قال البعض(٢) : عليك بماء النخالة فاحسه حارا ، فحسوت فاذا هو طيب جدا ، واذا هو يعصم .

ويشير الجاحظ الى ان الاستنقاع بالسمن يشفي من الجذام(٣) وان الجوارشن(٤) وهو نوع من المواد المخلوطة المسحوقة ، يساعد المعدة على الهضم . بيد ان الجاحظ يشير الى علاج ذي درجة عالية من الخطورة عند تعاطيه . الا وهو ريح السبل(٥) ، وهو مرض الغشاوة الذي تصاب به العين والسبل مرض يصيب العين بخيوط حمراء كخيوط العنكبوت ويعالج على ثلاث مراحل ، فاذا كان في المرحلة الثالثة فهو اشدها خطورة . وما كان منه في المرحلة الثانية فهو اسرع في البرء . اما اذا كان السبل من طبقة واحدة فانه يبرأ بالأدوية . وربما استعملت العقارب في العلاج ، حيث يسجل

(١) البخلاء ص ٨٧ـ٨٨
(٢) المصدر نفسه ص ٢٦
(٣) المصدر نفسه ص ١٣٧
(٤) المصدر نفسه ص ٢٩ـ٣٠
(٥) المصدر نفسه ص ٤٥

الجاحظ في كتاب الحيوان(٦) ما نصه : والعقارب يأكلها مشوية من بعينه ريح السبل ، فيجدها صالحة ، ويرمي بها في الزيت ، حتى اذا تفسخت وامتص ما فيها من قواها ، طلوا بذلك الدهن الجفن الذي فيه النفخ . كما يشير الجاحظ الى السرطان(٨) . ويتحدث عن تشوهات يحدثها المكدي في جسده ، كالمهمة التي يقوم بها القرسي(٩) الذي يعصب ساقه وذراعه عصبا شديدا ، ويبيت على ذلك ليلة . فاذا تورم واختنق الدم مسحه بشيء من صابون ودم الاخوين ، وقطر عليه شيئا من سمن ، واطبق عليه خرقة ، وكشف بعضه ، فلا يشك من رآه ان به الأكلة او بلية شبه الأكلة .

وقد تعالج بعض الامراض بالتنجيم والعرافة والزجر والطرق والفكر ، والنظر في اسرار الكف وفي النظر في الاكتاف والقضاء بالنجوم ، وما اشبه ذلك . واصحاب الاكتاف طائفة من اهل الفراسة ، يرون ان في الاكتاف مايعينهم على كشف اسرار الانسان . وما من شك في ان القوم قد استعملوا الادوات المتاحة للعلاج والاعشاب البرية

---

(١) الحيوان : ٤٠٠ـ٤٠١
(٢) البخلاء ص ٤٥
(٣) المصدر نفسه ص ٤٤

للتداوي • اما صفات الطبيب(١) وشـروط التطبب فيمكن تتبعها فيما ذكره الجاحظ عن حالة طبيب أكسد مرة على الرغم من براعته وتفوقه في صناعته • وهذه الملاحظة تدل على كساد سوق الطب عند المسلمين والعرب ، واتنعاشه عند المسيحيين النساطرة •

ولم يخف الجاحظ اثر بيئة البصـرة على الامراض ، فالحر الشديد ، الذي تتميز به البصرة يساعد على الاصابة بالبرسام(٢) والالتهابات التي تصيب الرأس والصدر والرئة• ولذلك نراه يشير الى هذه الظواهر ، مع ذكـر للعلاجات المفيدة التي تستخرج من البيئة القريبة او المحيطة بالبصرة ، وفي الكتاب ما يدل على ان اقداح بعض انواع من الخمور تقتل الديدان(٣) ومنه ان اوجاع الصدر جراء السعال يشفيها الفانيد السكري(٣) في حين يرى البعض ان الشفاء يكون : « بالخزيرة تتخذ من النشاشج والسكر ودهن اللوز واشباه ذلك » • واذا تبين للمريض ان هذه الوصفات مكلفة فيترتب عليه ان يأخذ ماء النخالة يحسوه حارا •

---

(١) البخـــلاء ص ٩٠

(٢) البخـــلاء ص ٣٢ انظر ص ٥٧

(٣) المصدر نفسه ص ٨٧ـ٨٨ من انواع الخمور التي يذكرها الجاحظ : الدوشاب ، هو نبيذ يستخرج من التمر •

(٤) المصدر نفسه ص ٢٦

وما من شك في ان هذه الملاحظات التي اوردها الجاحظ تدفعنا الى ان نتحدث عن الطبقات الاجتماعيــة فقد ورد في الكتاب ما يدل على ان الطبقات الفقيرة كانت معــروفة في البصرة ، ومن السهولة الاستدلال عليها(١) ففقراء البصرة مثلا كانوا اوفر حظا من فقراء الأبلة ، لانهم ــ كما يــرى الجاحظ ــ اشد تعظيما للاغنياء • ويقدم صورة طريفة يظهر فيها المفارقات بين مظاهر الغنى والفقر ، فزياد(٢) كان ، وهو امير ، يمر على بغلة في عنقها حبل من ليف مدرج في عنقها • كما يسوق صورة اخرى للتجار الذين يركبون البراذين(٣) ويقول : ما للتاجر وللبرذون ؟ وما ركــوب التجار للبراذين الا كركوب العرب للبقر • وهو يــرى انهم لو جلسوا في البيئات المكيفة ، واتخذوا الحمامات في الــدور ، واقاموا وظائف الثلج والريحان واتخذوا القيان والخصيان ،، لقــام الناس باسترداد ودائعهم واسترجعت القضاة اموال اليتامى والحشرية وهي المواريث التي لا وارث لها ، وفي هذه الحالة، سيعودون الى دينهــم وعيشهم واقتصادهم • واذا رآهــم اصحاب الغلات ، واهل الشرف والبيوتات انفوا ان يكونوا دونهم في البزة والهيئة فهلكوا واهلكوا ، وهكذا • ولعــل

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٣
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٧
(٣) المصدر نفسه ص ١٨٧

فيما ساقه الجاحظ ما يــدل على احساسه بوجـود طبقات اجتماعية متفاوتة المستوى والدرجات •

بيد ان الطعام يستأثر باهتمام الجاحظ اكثر من غيره • وليس هذا الموقف بغريب ، فقد دخل الطعام في عالم البخل والبخلاء ، حتى اصبح مجالا للتندر والفكاهة والنادرة •

فأبو يعقوب الذقنان(١) ما فاتني اللحم منــذ ملكت المال ••• ثم يدخل في تفاصيل ذلك على اعتبار ان اللحم كان سيد الموقف وما يحدثنا عنه مستمد مـن اللحم كالمرق • ويسمى المــواد التي تصاحب اللحم كالبصــل والباذنجان والقرع وما الى ذلك • ولم ينس الجـاحظ ان يشـير الى تفاصيل بعض المأكولات كالثريدة(٢) الدكنــاء من الفلفل ، الرقعاء من الحمص ••• اما السمك فله شأن كبير في الكتاب، ومن الانواع التي يذكرها الجاحظ البيــاج السخي الذي يقال له الــدراج(٣) ، والشبوط(٤) والجواف(٥) والصبور وهو من افضل انواع السمك وما الى ذلك • وحفلت موائد البصريين بالشبوط الــذي لايسكن الا في الاودية والانهار

---

(١) البخـــلاء ص ١٠٩ـ١١٠
(٢) المصدر نفسه ص ١٦٣
(٣) المصدر نفسه ص ١٧٩
(٤) المصدر نفسه ص ٨٨
(٥) المصدر نفسه ص ١٠٨

ويكره الماء المالح • ويكون في الماء القوي الجاري • ولعله اطيب انـواع السمك الذي يوجـد في الانهار • كما عرفوا الجواف الذي يجيء دجلة البصرة من اعالي البحـار ، وهو يستعذب الماء بعد ان خبر ملوحة البحر • وهذا ينطبق على البياج السخي الذي يكون في البحـار ثم يصعد الى الانهار احيانا ولعله من الاصناف القليلة التي تنسب الى البصـرة ، ذلك ان السبخة موضع قريب من البصـرة ، حتى ان بعض البصريين صنعوا محابس يحبسون فيها البياج تمهيدا لبيعه •

ولم يقف البصـريون عند حـدود المحابس ، فقـد استخدموا نظام« الدرياجة » الذي يستفيد من المد والجزر• ولعل الصيادين(١) قد كانوا يضعون القصب او الجريد على هيئة قوس طـرفه الاسفل متصل باليابسة وطـرفه الاعلى منفصل عنها بمقدار قليل • وبذلك يمكن صيادي السمك من الدخول مع الماء اثناء المد ، حيث تغلق ركائز القصب او الجريد بعد ذلك اثناء الجزر • ولعل في المصطلح ما يوحي الى فعل الشباك في الصيد •

وقد تنطبق هذه الوفرة الى حد ما على اللحوم الحمراء كذلك ، فالطباهج(٢) ذكره الجاحظ على انه طعـام شهي له

---

(١) انظر : طه الحاجري ص ٣٣٦ (اللفظ الشائـع هـو : اللسكرة) •

(٢) البخـلاء ص ١٩٤

رائحة مغرية • وقد اختلف فيه ، فمرة يوصف بانه طعام مكون من بيض وبصل ولحم ، ومرة يذكر على انه الكباب ، وان العرب تسميه « الصفيف » اما الكردجاج(١) فهو اللحم المشوي على السفافيد • في حين تذكر الشبارقات على انها لحوم تقطع قطعا صغيرة وتطبخ •

ويحفل الكتاب بما لذ وطاب من مأكولات البصرة والابلة ، فهناك(٢) : الرطب السكر والجسيران الاسود والسهيرنز والبرني والذي يظهر ان بعض هذه المأكولات قد حفلت بها مؤائد اهل الابلة ، اما موائد البصرة(٣) فقد حفلت بانواع التمر والسمن السلاء واللحوم المشوية والمقلية ، بيد ان بعض البصريين قد ذهبوا في الاقتصاد والبخل مذاهب كثيرة ، فالمادة الغذائية الواحدة يمكن ان تصنع لينتج عنها مواد لها صلة بالاصل • تماما مثلما حدث مع ابن العقدي(٤) الذي كان يتعامل بالارز المتشر ، ليجشه ثم يذريه ثم يغربله، ثم يعيد الجش والتذرية والغربلة ، ثم يكلف الأكار ان يطحنه على ثوره ، وفي رحاه • فاذا طحنه كلفه ان يغلي له الماء ، ثم يعجنه فيخبزه •

(١) المصدر نفسه ص١٩٤ (اللفظ الشائع الان هو : القيمة)•
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٠
(٣) المصدر نفسه ص ١٩ـ٢٠
(٤) المصدر نفسه ص ١١٧ (على سبيل المثال)

وتظهر بيئة البصرة في ما حفل به الكتاب من الفاظ تشير الى المأكولات ، وما كانت تحفل به موائد البصريين ، ونفهم مما اورده الجاحظ ان الموائد البصرية كانت تحفل بانواع الاكل والشراب فالحيس(١) من المأكولات التي يمكن نسبتها الى البادية العربية ، على اعتبار انها تتشكل من تمر وسمن وأقط ، تخلط وتطحن وتسوى كالثريد ، والاقط ليس حامض يجمد حتى يستحجر ويطبخ • وهذا ينطبق على بعض المأكولات الاخرى مثل العصيدة(٢) التي تتشكل من دقيق يلت بالسمن ويطبخ ، ومع ذلك ، فقد كان القوم يستعملون « البارجين »(٣) وهي اداة من ادوات التقاط الاكل ولعلها اقرب شبها للشوكة المستعملة الان • وكان ثمة من وصفوا بأنهم سيئون في مؤاكلتهم • وذكر الجاحظ عيوب المؤاكلة في سياق الحديث عن مطاعمة الملوك ، وانه لاينبغي ان يحدث على موائدهم • ويعيب على الساسانين من الملوك ما اطلق عليه « بالزمزمة »(٤) وهي تراطن العلوج على أكلهم وهم صموت ، فيرسلون اصواتا تديرها الخياشم

(٤) المصدر نفسه ص ٦٥
(٢) المصدر نفسه ص ٥٦
(٣) البخلاء ص ٥٩ وانظر ايضا مجلة التراث الشعبي ص ٢٧ ، اللفظ الشائع هو جنقال
(٤) المصدر نفسه ص ٥٩

والحلوق • ويطلق الجاحظ على من كان سيء المؤاكلة بالجرديبل(١) وهي من اصول فارسية تعني من يضع يده على الطعام لئلا يأكل غيره وقد عرب اللفظ واصبح جردب •

ويظهر في الكتاب ان بعض المأكولات كانت شائعة ، فالاعراب كانت تأكل جرو الذئب فقد اورد الجاحظ على لسان اعرابي قوله(٢) : جعت حتى سمعت في مسامعي دويا ، فخرجت اريغ الصيد ، فاذا بمغارة ، وذا هو جرو ذئب ، فذبحته وأكلته وأدهنت واحتذيت • كما نمدح القبيلة بفعل جميل وان لم يكن ذلك بواحد منها •

ومهما يكن من أمر ، فقد كان للموائد اداب معروفة ، وكان لها شعراء وكتاب وناقدون يتحدثون عن اصناف كثيرة من الاطعمة التي كانت شائعة في بعض بيئات البصرة كالدجاج المسمن والخوامزكة(٣) وجداء كسكر(٤) ويبدو ان للجدي مكانا ممتازا على موائد البصريين •

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٠ وانظر السامرائي ص ٣٠
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٩
(٣) الخوامزكة : شرائح اللحم التي تؤكل غير مطبوخة • وقد تعني المرق المبرد المصفى من الدهن • يطلق على الدجاج المسمن الان اسم (هراقي) •
(٤) كسكر : اقليم يقع بين البصرة وبغداد

وهو يذهب الى ان الجدي اطيب من الحمل واكرم • هذا فضلا عما كانت تحفل به الموائد من فواكه اطلق عليها الجاحظ فاكهة الجبل(١) ومن المأكولات التي كانت تحفل بها الموائد البصرية الحلوى ، كالفانيد(٢) وهو نوع من الحلواء، يصنع من السكر او قصب السكر ودقيق الشعير والترنجبين• وهو معرب عن الفارسية « بابند » والبستندود(٣) الذي يعني الفطائر المحشوة ، « والحشكنان »(٤) وهو نوع من الكعك المحشو باللوز والسكر ، او الخبز المصنوع بالزبد والسكر والجوز والفستق ، ويكون على هيئة هلال بيد ان سيد الحلوى كان « الفالوذج » الذي كان يصنع من الدقيق والعسل والسمن واللوزنيج وهو نوع من الحلواء الفاخرة شبه القطائف ، يؤدم بدهن اللوز • وما شاكل ذلك في حين تصنع الاخبصة من التمر والسمن او العسل بدلا من التمور •

واذا كانت موائد الطبقات العالية قد حفلت بما لذ وطاب من الطعام والشراب ، فقد اكتفت الطبقات الدنيا

(١) البخلاء ص ٥٦
(٢) البخلاء ص ٢٦ وانظر مجلة التراث الشعبي ع٦ + ٧ السنة الخامسة ١٩٧٤ د٠ ابراهيم السامرائي ص ٤٥
(٣) المصدر نفسه ص ٥٦ انظر كذلك السامرائي ص ٢٦
(٤) المصدر نفسه ص ١١٠ وكذلك السامرائي

بالمأكولات الرخيصة الثمن « كالمثلثة »(١) التي هي نوع من الحساء والخشكار(٢) وهو النخالة ، والسكباج الذي يتكون عادة من المرق المصنوع من اللحم والخل •

ويذكر الجاحظ نوعا من الخبز هو الزكوري(٣) اطلق عليه «خبز الصدقة » ولعله نوع من الخبز الذي كان يفيض من موائد الموسرين البصريين ، ليوزع بعد ذلك على الفقراء والمحتاجين • وعلى الرغم من ان الجاحظ ذكر الرغيف(٤) كثيرا الا انه لم يحدد ملامحه او يصفه • ويبدو انه كان رخيص الثمن تتوافر عليه الطبقات جميعها • لذلك لم يلعب دورا كبيرا في الكتاب •

واشتهرت البصرة بصناعاتها وحرفها ، فهناك الجرار المذارية(٥) وقد وصفت بانها ذلك النوع الذي يرشح منه الماء • ولعلها نسبت الى منطقة المذار الواقعة بين واسط والبصرة وقد اشار الى ذلك ياقوت على انها معروفة بجرارها• وذكر الجاحظ « المزملة » وهي آنية يبرد فيها الماء بعد ان يوضع عليها لفاف ثياب خشنة ، وتلف بثوب او جلد مزين

---

(١) البخلاء ص ٣٤ (اللفظ الشائع الان هو : مرقة هوا)
(٢) المصدر نفسه (اللفظ الشائع الان هو / ما منده
(٣) المصدر نفسه (اللفظ الشائع الان هو : الطياح)
(٤) المصدر نفسه ص ١٥ •
(٥) البخلاء ص ٣٨

حسن المنظر • وهم يجعلون تحتها مرفعا من عود او حديد ترتفع به عن الارض • وتكون في الدور ايام الصيف • فيبرد الماء بالبرادات ، ثم يصب في هذه المزملة فيبقى باردا •

وعرفت بيئة البصرة القماقم وهو نوع من الجرار ، يحمله السقاءون ، كما عرفت البيئة صناعات الجام والجفان والخيش والزقاق والسفافيد والاطباق بانواعها والطسوت والقوارير والقدور •••• وما الى ذلك • وانتشرت فيها صناعات جلبت من مناطق اخرى كالنعال السندية(١) والفرعوني(٢) ولعله نوع من الزجاج الذي تنطوي صناعته على طائفة من الاسرار ، والخلنجيات(٣) ولعلها اواني طعام تصنع من الخشب ، وغير ذلك من الادوات التي كان يستعملها البصريون كالتليا والبرنيد(٤) والحبال والخزائن والصناديق والعصي والقطع الحادة ، والمنادف والمناديل وادوات اللعب ، وما شاكل ذلك •

ولم ينس الجاحظ الحديث عن بيئة الصرافة والصرافين والاشارة الى النقود كالدرهم بانواعه والقيراط والحبة والدانق والدينار ، وما الى ذلك • بيد ان الجاحظ ، فضلا

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠١
(٢) المصدر نفسه ص ٤١
(٣) المصدر نفسه ص ٤٧
(٤) المصدر نفسه ص ١٩٤

عن انه يشير الى الربا والى الاقوام المرابين في البصرة ، يشير الى صيرفي بصري كان يملك مائة الف دينار ، ويستخدم العديد من الغلمان وهو زبيدة بن حميد(١) الذي اورد له الجاحظ بعض النوادر التي تدل على بخل اصيل • فهو يصوره وقد استلف درهمين وقيراطا من بقال ، ومرة اخرى يصوره وقد ضرب غلمانه بسبب اتلافهم لشيء من الجوارشن(٢) •

وعرفت البصرة نوعا من المعاملات المالية هي «العينة» (٣) التي تطلق على نوع من المعاملات المالية هي اقرب شبها للربا • وقد سميت كذلك لحصول النقد لصاحب العينة ، لان العين هو المال الحاضر من النقد • ومن الامثال المعروفة في بلاد الشام « على عينك يا تاجر » ، ذلك ان المشتري انما يشتري بها ليبيعها بعين حاضرة تصل اليه معجلة • ومن المصطلحات المالية التي يوردها الجاحظ « الحشرية »(٤) وهو اصطلاح خاص بالمواريث التي لا وارث لها •

على ان اطرف ما كان في حياة البصريين هو ما ساقه

---

(١) البخلاء ص ٢٩ـ٣٠
(٢) المصدر نفسه ص ٢٩ وهي مادة تؤكل لمساعدة المعدة على الهضم •
(٣) المصدر نفسه ص ١٢٤
(٤) المصدر نفسه ص ١٨٧

الجاحظ في موضوع كراء البيوت واخلاق المستأجرين(١) •
ويظهر ان الكراء كان يتم بالاتفاق الشفهي بين الطرفين المؤجر والمستأجر ، كما كان يؤخذ بعين الاعتبار عدد الاشخاص ، ودليلنا على ذلك ما حدث مع معبد باعتباره مستأجرا والكندي باعتباره مؤجرا ، عندما طلب الاول من الثاني ان يوافق على عدد المقيمين ، فطلب الثاني زيادة الكراء على اعتبار انه(٢) « اذا قد زدت رجلين فلا بد من زيادة خمستين ، فالدار عليك من يومك هذا باربعين » ويقدم المستأجر حجته على هذا النحو(٣) « : وما يضرك من مقامهما وثقل ابدانهما على الارض التي تحمل الجبال ، وثقل مؤونتهما على دونك ؟ » في حين يقدم المؤجر حجته على هذا النحو : من ذلك سرعة امتلاء البالوعة وما في تنقيتها من شدة المؤونة ومن ذلك ان الاقدام اذا كثرت ، كثر المشي على ظهور السطوح المطينة ، وعلى ارض البيوت المجصصة ، والصعود على الدرج ، فينقشر لذلك الطين وينقلع الجص وينكسر العتب •• ثم راح يصور تهشم الابواب واقتلاع الرزات ، وتخريب الحيطان وخشب الرفوف • وهذا يستتبع صب الماء

---

(١) البخلاء ص ٧٠-٧٧
(٢) المصدر نفسه ص ٧١
(٣) المصدر نفسه ص ٧١

الكثير واتخاذ الجبة القاطرة والجرار الراشحة • وقد يتخذون سطوح الدور للمطابخ •••

ومن اخلاق المستأجرين انهم يماطلون بدفع الكراء ، حتى اذا اجتمعت على المستأجر كراء اشهر فر ، وخلى اربابها جياعا يتندمون على ما كان من حسن تقاضيهم واحسانهم فكان جزاؤهم وشكرهم اقتطاع حقوقهم والذهـاب باقواتهم • وقول(١) : ويسكنها الساكن حين يسكنها وقـد كسحناها ونظفناها لتحسن في عين المستأجر ، وليرغب فيها الناظر فاذا خرج ترك فيها مزبلة وخرابا • ثم ان المستأجر لايدع متراسا الا سرقه ولا سلما الا حمله ولا نقضا الا اخذه ، ولا برادة الا مضى بها معه • ويمعن الجاحظ في تصوير هذه الحالة ، بل انه يذهب بعيدا في تصوير مماطلة المستأجرين في الاداء ، وقد يدفع بعضهم الكراء مقطعا او مفتتا واذا ارسل رسولا لتحصيل الكراء وكان الرسول جارية رب الدار افسدها ، وربما احبلها وان كان غلاما خدعه ، وربما شطر به ، هذا مع التشرف على الجيران ، والتعرض للجارات ، ومع اصطياد طيورهم واغرائهم بالشهوات وخداعهم بكل الوسائل ولعل في هذه الملاحظات التي اوردها الجـاحظ على شكل رسالة ما يدل على ان موضوع المؤجرين والمستأجرين كان متداولا،

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٣

ويتناقلون احاديثه ، وان النكبة تلحق بالمؤجر دائما • وربما كان على من اراد ان يؤجر داره ان يسعى الى اختيار من يعرف موضعها وبدون ذلك يصبح(١) في معنى المودع وصار المكتري في موضوع المودع •

وفي الرسالة ما يدل على هدف المستأجرين كان اهلاك اصول الاموال وتخريب الغلات ، حتى لقد اصبحت اقل ثمنا ودخلا من سائر الغلات ، لان المستأجر ربما اتخذ الدار متنزها ان شاء ومسكنا ان شاء • ويظهر ان صاحب الدار لم يكن يقدر على شيء ، وكان يجرع المرار ، ويسقى بكأس الغيض ويكد بطلب الحوائج ويحمل الذلة ، وان عفا عفا عن كظم ولا يوجه ذلك منه الا الى العجز ، وان رام المكافأة تعرض لاكثر مما انكره • قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق » •

وهذا يعني وجود حالة من القلق في نفوس اصحاب الدور ، وعدم الثقة في المردود الذي يمكن ان يحصلوه • كما ان ثمة ما يدل على روح الاستغلال التي كانت سائدة عند طبقة المستأجرين • ولعل فيما اوضحته هذه الرسالة ما يدل على كثرة الدور التي كانت تعرض للايجار ، وان القضاء لم يتخذ من الاجراءات ما يحد من الشكاوى العامة التي كانت

---

(١) البخلاء ص ٧٥

تقدم له وما من شك في ان هذه البيئة قد ساعدت في خلق اجواء جديدة من اصناف البخــل والبخــلاء ، وعملت على ترسيخ مفهوم الاقتصاد . فاذا كان بناء الدور تمهيدا لاكرائها يدل على ان بعض الفئات البصرية قد تمكنت من اعلاء البنيان، فان هذه الحالة قد خلقت طائفة ممــن يودون الربــح غير المشروع والسكن دونما نفقة ، بل انها ساعدت على تكريس المشكلات الاجتماعية التي قامت بين الفئات الاجتماعية ولا سيما بين طبقة الاثرياء والطبقة الوسطى . اما الفقراء فقد كانوا يعيشون على هوامش هاتين الطبقتين ، وعلى خط ادنى بكثير من خطوط الفقر التي يعرفهــا العبيد وعمال الارض ومن البهيم .

وهكذا تظهر لنا بوضوح الكيفية التي صور الجاحظ من خلالها بيئة البصريين وصناعاتهم وحرفهم عندما تنــاول الوسط الاجتماعي وصور اخلاق الناس . ولم يقف عنــد فئة من المجتمع او طبقــة من الناس ، وانما عنــي بتصوير الحاضر الذي عاشه . ولقد ظهر لنا كيف تشعبت صناعات البصرة وحرفها ، ومدى تأثــير البيئة فيها ، فضلا عن تأثير الشعوب والامم المجاورة .

ويعد كتاب البخلاء من مصادر الحياة الشعبية للبصرة، وليس هذا الموقف بغريب على الجاحظ ابن البصرة الــذي عاش حياتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية قرنا من الزمن

ولقد اشار الجاحظ الى كل ما يمت للحياة الشعبية بصلة . من مثل حديثه عن الاضحية ، ودورة حياة الانسان البصري منذ ولادته الى وفاته كما اطلعنا على طبيعة الزي الذي كان شائعا ، والمواد التي يتطيب البصريون بها والملابس الكثيرة والمتنوعة وبالطريقة نفسها خص الطب الشعبي بعنايته ، باعتباره اكثر الممارسات التصاقا بالحياة الشعبية واظهر له مكانا بارزا في كتابه ، وقدم ما كان يعرفه من الوصفات الشعبية والمعارف التي كانت تقوم عليها حياة البصريين .

واستأثر الطعام باهتمام الجاحظ بشكل ملفت للنظر ، على اعتبار انه يدخل في عالم البخل والبخلاء حتى اصبح مجالا للتندر وقد ذكر اللحوم الحمراء والبيضاء بانواعها وكذلك الحلوى التي اشتهر المطبخ البصري بها . كما يسوق الجاحظ بعض النوادر في هذا المجال .

ويخصص للصناعات الشعبية التي اشتهرت بها البصرة جانبا مهما من كتابه ولا سيما الصناعات التي تعتمد على المواد التي تنتجها البصرة او التي يستعملها الصناع . واذا كان قد تحدث عن بيئة الصرافين والى ظاهرة الربا والصيارفة والمعاملات المالية ، فقد تحدث عن بيئة المستأجرين واخلاقهم واهدافهم وغاياتهم وهاتان البيئتان قد ساعدتا في خلق اجواء جديدة من اصناف البخل والبخلاء .

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٤٦٧ لسنة ١٩٩٠

طبع بمطابع دار الشؤون الثقافية

صورة البصرة في بخلاء الجاحظ

هي البصرة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، ومن خلال ما سجله الجاحظ في كتاب البخلاء، والبحث هو توضيح ملامح بخلاء الجاحظ، وبيئات اخرى، بيئة العيابين وبيئة المكدين والمغفلين والحمقى والمؤجرين والمستأجرين،

وهو عن تأسيس البصرة وصفتها واسمها ومخططاتها وانتماءات سكانها وبيوتاتها ومربدها واوساطها الاجتماعية والدينية والادبية.

والبحث في هذا الكتاب جديد ومتميز، وهو اضافة الى ما كتب من دراسات عن الجاحظ وادبه.

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

الغلاف : رياض عبدالكريم

السعر.. ١,٥٠٠ دينار

بغداد ــ ١٩٩٠

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة